

رواية

الشارقة فجراً

رحلة من التيه إلى النور

حيدر عبد الرحمن الربيعي

الرواية
دار للنشر والتوزيع

الثالثة فجراً



الثالثة فجرا

المؤلف : حيدر عبد الرحمن الربيعي

التصنيف: رواية

الطبعة: الاولى

سنة الطبع : 2026

الترقيم الدولي : ISBN: 978-9922-787-26-8

تصميم الغلاف والاخراج الداخلي : علي كاظم الشويلي

الناشر: دار الورشة الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان: بغداد – شارع المتنبي – مجمع العهد الجديد

الهاتف: 009647714343692 \ 07729247088

alwarsha2018@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب او أي جزء منه او تخزينه
في نطاق استعادة معلومات او نقله بأي شكل من
الاشكال دون اذن خطي مسبق من المؤلف، ان الآراء
الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار
الورشة الثقافية

الثالثة فجرًا

رواية

حيدر عبد الرحمن الربيعي

2026

ملخص رواية "الثالثة فجرًا"

في ساعةٍ معلّقة بين الموت والحياة، الثالثة فجرًا، حيث تصمت المدن، وتستيقظ الأرواح، وتكشف الأسرار التي تُخفيها النهارات الصاخبة.

هناك تبدأ رحلة أسمر، رجلٌ تمرّقه الأسئلة وتطارده الضلال، باحثًا عن يقينٍ خلف ستائر الخوف والفقد والتمويه.

بين حبٍّ معلّقٍ لم يكتمل، وسجنٍ صهر الجسد لكنه حرّ الروح، ومشاهد صوفية تتنقل بين مراقد بغداد العتيقة وأروقة الذاكرة.

يسافر أسمر في عوالم متداخلة من العشق والفقد، حتى يذوب في مقامٍ لم يعد فيه موجودًا، بل صار هو الطريق نفسه.

"الثالثة فجرًا" ليست حكاية رجلٍ واحد، بل رحلة إنسان يبحث عن

معنى وجوده في عالمٍ تتناسل فيه الأسئلة ولا تُستدرج الأجوبة .

ستجد نفسك في صمته، في دموعه، وفي صراخه المكبوت .

وربما ستدرك أن الطريق الذي سار فيه أسمر يبدأ، حيث تظن

أنت أنه انتهى.

كلمة المؤلف

نكتب لا لنهرب من الواقع، بل لنمسكه من عنقه ونجرّه إلى النور .
 نكتب لنحكي أنفسنا، متمردين على واقع خبرنا أزماته وخيباته.
 نكتب لأن الصمت لم يعد يسع أرواحنا، ولأن اللغة بكل عجزها
 وقيودها هي محاولتنا الأخيرة لإنقاذ ما تبقى فينا من الإنسان .
 هذه الرواية ليست سيرة بطلٍ خارق، ولا حكاية رجلٍ كامل .
 إنها مرايا كثيرة تتشظى في وجه القارئ ، ربما ترى فيها وجهي،
 وربما ترى وجهك أنت .
 كتبناها لأنني آمنت بأن الإنسان لا يُعرَف من مظهره ولا بما
 يُقال عنه، بل بما ينطق به قلبه ، فالإنسان مخبوء تحت لسانه،
 فإن نطق ...عُرف .
 كتبت " الثالثة فجرًا "وأنا أتعثر في أسئلتي، ربما لم أجد كل
 الإجابات، لكنني وجدت شيئاً أؤمن ! وجدت الرحلة نفسها .
 وها أنا أضعها بين أيديكم لا لتأخذوا منها أجوبة جاهزة، بل
 لتأخذوا منها أسئلتكم أنتم، وتسافروا في صمتكم الخاص، حيث
 يبدأ الطريق، حين تظنونه قد انتهى .

الكاتب : حيدر عبد الرحمن الربيعي

بغداد ٢٠٢٦ م

قراءات نقدية حول الرواية

قراءة الروائي صادق الجمل :

الغربة والتغريب موقف إنساني مرهف الحس يحاول الكاتب الاستاذ حيدر الربيعي ان يغادر المكان والزمان رغم صعوبة الانعتاق عن مريديه وخلانه وهو يجاهد كي يرسم طريقاً جديداً للحب الاسمي والاكبر ، فقد تخلص عن حبيبته واراد لها ان تعيش النريفانا بالتوحد مع الذات الالهية وحرقت الغرائز .

ترجم لنا الكاتب فلسفة الاعتقال وكيف حول المعتقل الى صومعة يبشر من خلالها الآخرين كي يحقق لهم الإطمئنان والرفعه يعبد لهم طريق الخلاص من الظلم . لقد هاجر الكاتب بفضاءات قصيه حين لجئ الى زاويته الأثيره يراقب السماء ويسمو في عظمة الخالق بعيداً عن مباهج الحياة نحو الحب الاسمي . ببواعث السعاده لاسعاد مريديه الذين وجدوا ملاذهم عند (اسمر) وقد إنتابهم إحساس بالتآلف رغم بعد المسافات ووعورة الطريق إلا ان الخيط الرفيع كما بدى اول مرة فأصبح حبل نجاة لهم .

ابارك للاستاذ حيدر عبد الرحمن الربيعي هذا المنجز .

تحية وتقدير وانت تنتثر البذور في ارض قاحلة حتى ازهرت واثمرت
بفضل سقايتك ورعايتك.
من كل قلبي أهنئك واتمنى لك المزيد من التالق والنجاح والله الموفق

الروائي صادق الجمل

بغداد ٢٨/٩/٢٠٢٥

قراءة المخرج والسيناريست الاستاذ باسم صباح الباسم

حين قرأت «الثالثة فجرًا» للكاتب حيدر عبد الرحمن الربيعي، أحسست أنني لا أقرأ رواية، بل أشاهد فيلمًا يتحرك بين السطور. النصّ يفيض بلقطاتٍ داخلية عميقة، تنبض بلغةٍ تقترب من عدسة الكاميرا أكثر مما تقترب من الورق.

في الثالثة فجرًا، ذلك الزمن المعلق بين الليل والنهار، بين الحلم واليقظة، يتجلى البطل أسمر كمرآة للإنسان الباحث عن ذاته، التائه بين ضجيج المدن وصمت الروح. إنه ليس بطلًا تقليديًا، بل كائنٌ بصري تُروى حيرته بالضوء والظل والفراغ، وتُعبّر عنها بلغة الصورة لا بالكلمات وحدها.

الرواية تنتمي إلى ما يمكن أن أصفه بـ سينما الرحلة الداخلية، أو التيه الهادئ، أو حتى الكشف الذاتي؛ حيث الرحلة ليست في الخارج، بل في عمق الذات، في مواجهة الذاكرة والذنب والحنين. أما بغداد، فليست مكانًا فحسب، بل شريكًا دراميًا يلهث مع أنفاس مدينةٍ تنام واقعة وتستيقظ على أسئلةٍ لا تنتهي.

من وجهة نظر إخراجية، يمنح النص حرية تشكيل عالمٍ بصريٍّ يسكنه الضوء البارد، والمشاهد البطيئة، والفراغات الموحية. يمكن للفيلم المستوحى من هذه الرواية أن يكون تجربة تأملية حسّية، يُشاهد فيها الصمت بقدر ما يُسمع الحوار، وتتحوّل التفاصيل اليومية — كوب قهوة، جدار أبيض، نافذة مفتوحة — إلى رموزٍ لرحلة الإنسان نحو ذاته.

«الثالثة فجرًا» ليست مجرد رواية، إنها سيناريو مفتوح للحياة، كتبها الربيعي بصدقٍ روحيٍّ نادر. نصٌّ يدعو المخرج إلى إعادة تأليفها بالصورة، لا لتفسيرها بل لتأملها. وكأن الربيعي كتبها بعدسةٍ، وترك للمخرج مهمة إكمال اللقطة الأخيرة التي تركها أسمر مفتوحة... حيث يبدأ الطريق، حين نظن أنه انتهى. إنها تذكيرٌ بأن كل فجرٍ ثالث يحمل وعدًا بولادةٍ جديدة، ولو في داخلنا فقط.

باسم صباح الباسم

مخرج سينمائي

بغداد - ٢٠٢٥

مقدمة الرواية

كلُّ ما أكتبه ليس حكايةً أرويها لكم، بل حكايةٌ حدثت لي، وما زالت تحدث. لم أكن يومًا بطلاً كما يظن الناس، ولم أكن قديسًا ولا نبيًّا، كنتُ رجلًا يبحث، يبحث في الوجوه عن وجهٍ واحدٍ لا يغيب، وفي الأصوات عن نداءٍ يعرفه القلب قبل أن يسمعه الأذن وفي الأحلام عن وطنٍ لا يطرده المنفى. لكن البحث قادني إلى ما لم أتخيله قط، إلى طرق مظلمة سلكتها بقدمي المرتجتين، وإلى أبوابٍ خفية لم تفتح بالمفاتيح، بل بالدموع، وإلى مرايا رأيتُ فيها نفسي تتفتت ألف مرة، لأكتشف أن ما كنت أظنه "أنا"، كان مجرد ظلٍّ عابرٍ لشيءٍ أكبر بكثير.

ستقرأون هنا سيرة رجلٍ اسمه أسمر، لكن حذارٍ أن تظنوا أنكم تقرأون سيرته وحدها، لأنكم كلما اقتربتم من ظلاله، ستجدون ملامحكم في صمته، وأنفاسكم في حزنه، وأسئلتكم في أسئلته.

ستسافرون معه بين حاناتٍ صاخبة تبحث عن معنى في ليلٍ بلا نجوم ومراقد صوفية يختبئ فيها السرّ كما يختبئ المطر في الغيم، زنازين باردة لا يضيئها إلا ذكر الله، وحروبٍ خفية بين

النور والظل، حتى تصلوا معه إلى حيث لا كلام بعد الآن، حيث الصمت نفسه يتكلم.

هذه ليست رواية عن الحب، لكنكم ستجدون الحب في كل سطر. وليست رواية عن الفقد، لكنكم ستبكون الفقد بين الحروف. وليست رواية عن التصوف، لكن أرواحكم ستمس أطرافه، كما يمس العابر أطراف غيمة بعيدة. أما النهاية...

فلا تبحثوا عنها في آخر الصفحات، لأن النهاية الحقيقية ليست مكتوبة هنا.

لقد تركها أسمر مفتوحة، كبابٍ إلى مجرةٍ أخرى، كخط صغير على صفحة ماء، كهمس دجلة حين يغادره القمر.

اقرأوا هذه الرحلة بقلوبكم، لأن العقول ستتعب سريعًا من الأسئلة. أما القلوب فستعرف أين تهبط، حين تصل إلى الحقيقة.

فالطريق يبدأ... حيث تظن أنه انتهى

الفصل الأول : العين ترصد والقلب يدّون

استيقظتُ في الثالثة فجرًا...

كان الليل ما يزال معلقًا بيني وبين السماء كستارة من غموضٍ كثيف، لكن قلبي كان يلهث، كأن أحدهم أيقظني من حلمٍ لا يريد أن ينتهي. لم أعرف لماذا، لكنني وجدتُ شفتي تتمتان بلا وعي: "العينُ ترصد، والقلبُ يدّون" كأن المنام امتدَّ إلى اليقظة، أو كأن اليقظة نفسها كانت جزءًا من حلمٍ أكبر مني.

رائحة القهوة الباردة في الغرفة، صوت عقارب الساعة الثقيلة، وضوء خافت يتسلل من نافذة صغيرة. كل شيء كان ساكنًا، لكن داخلي كان عاصفًا.

كنتُ أستعيد مشهدًا غريبًا من الحلم، كنت أعزف الجيتار في قاعة صغيرة مضاءة بأنوار صفراء باهتة، أمام وجوه مألوفة وغريبة في الوقت نفسه. الضحكات، دخان السجائر، كؤوس النبيذ، وأنا بينهم، أعزف وحدي، كأن الموسيقى لم تكن لهم، بل كانت بوصلتي الأخيرة نحو نفسي. لكنني، في منتصف الحلم، تركت الجيتار على الكرسي ومضيت، كنت أبحث عن مكانٍ

أختبئ فيه، عن ملاذ صغير يحميني من ضجيجهم ومن نفسي معًا.

جلستُ على طرف السرير، وضعتُ رأسي بين كفّي، وسألتُ نفسي: ما ذنبي أنني ولدتُ متمرّدًا؟ أنني لا أقبل أن يُوطرني شيء؟ هل أنني أبحث عن الله في كل شيء،

حتى في الخطيئة أحيانًا؟ حتى ولادتي نفسها لم تكن عادية؛ خرجتُ إلى الدنيا بعملية قيصريّة متأخرة، كأنني قاومتُ أن أجيء قبل أن أختار طريقي. ربما لهذا كنتُ أبحث دومًا عن دربٍ آخر، عن حياةٍ تتجاوز الأسوار المرسومة لي منذ البداية.

فتحتُ درج الطاولة الصغيرة قرب السرير، وأخرجتُ الدفتر الأزرق الذي صار رفيقي في السنوات الأخيرة. فتحت صفحته الأولى وكتبت:

العينُ ترصدُ...

والقلبُ يدوّنُ...

وكل ما أعيشه الآن، ليس بدايةً ولا نهاية، بل طريقٌ ينحتني قبل أن أنحته.

وفجأة، انفتحت في ذاكرتي بوابة صغيرة تعيدني إلى الطفولة، إلى تلك الرحلة البعيدة إلى شهربان، حيث البذرة الأولى للحكاية كلها. كنتُ طفلاً لم يبلغ العاشرة بعد، حين أخذني والدي لزيارة أحد أصدقائه هناك. لا زلتُ أذكر الأشجار الكثيفة المورقة التي تتدلى أغصانها على الطرق الترابية، والبيوت الصغيرة التي تشبه أحلاماً من طينٍ ناضج، وصوت أذان الفجر يتردد من مآذن بعيدة فيفيض الصمت كخيوط نورٍ خافت.

هناك، في بيت صديق والدي، قادتنا شقاوة الطفولة أنا وأسامة وسناء، الطفلة النقية ذات العيون الواسعة، إلى الدخول إلى الغرفة المحرمة؛ غرفة الأب، حيث مكتبته وأوراقه المبعثرة. كانت هناك لحظة صمت مقدس حين وقعت عيناى على كتاب أصفر وأسود، شعرتُ كأنه يحقّ بي، يناديني. مددتُ يدي بخوف وسحبته، أخفيته تحت قميصي الصغير، وأسرعْتُ خارج الغرفة كمن سرق قدره لا كتاباً.

لاحقاً، حين كبرتُ، أدركتُ أن ذلك الكتاب، للكاتب جان بول سارتر، لم يكن مجرد بداية لقراءاتي، كان الباب الأول الذي أدخلني إلى متاهة الأسئلة: الحرية، الوجود، المعنى، الغياب.

يومها لم أكن أعرف أن هذه الأسئلة ستأخذني من الفلسفة إلى التصوف، ومن شهربان إلى بغداد، ومن جيتار الفنادق إلى مرقد الأولياء، ومن الحب الأول إلى سجون الطغاة، حتى أصل إلى هذا الفجر ..حيث العين ترصد والقلب يدّون.

أغلقتُ الدفتر الأزرق، وفتحتُ نافذة الغرفة لأتتنفس نسيم بغداد الفجري .في الخارج، كان صمت الشوارع يشبه صلاة لم يؤذن لها بعد .شعرتُ أن هناك طريقًا خفيًا يناديني من بعيد، طريقًا سيعلمني أنني لم أكن أبحت عنه، بل كان يبحث عني منذ البداية.

الفصل الثاني : ضلال الطفولة

كأنني أرى المشهد الآن...

الطريق الطويل إلى شهربان كان يشبه الخروج من بغداد إلى نسخة أبطأ من الزمن. السيارة القديمة تشق طريقها بين الحقول الممتدة، ورائحة الطين المبلل بالمطر تتسرب إلى أنفي فتوقظ في قلبي حنينًا لم أفهمه حينها. لم أكن قد بلغت العاشرة بعد، لكنني كنت أشعر بشيء غامض كلما ابتعدنا عن المدينة، كأنني أغادر صخب العالم إلى مكانٍ يحتفظ بسرٍّ ما.

وصلنا إلى بيت صديق والدي في ظهيرة هادئة، البيت صغير، جدرانه مبيضة برفق، وساحته تتوسطها شجرة رمان كبيرة تتدلى أغصانها كأيدٍ تبارك القادمين.

كان الهواء هناك أكثر نقاءً من بغداد، وكان صمت الحقول المحيطة يمنحني شعورًا بالاتساع والطمأنينة. استقبلنا الرجل بابتسامة ودودة، بينما كانت عينااي تلتقطان كل تفصيلة حولي، الأرض المفروشة بحصران من القش، الأبواب الخشبية الثقيلة، ورائحة الخبز الحار الصاعد من المطبخ.

لكن ما شدّ انتباهي أكثر من كل شيء، كان بابًا صغيرًا في نهاية الممر، بابًا خشبيًا داكنًا، عليه قفل قديم صدئ.

بعد الغداء، انطلقتُ مع أسامة، ابن صاحب البيت، وأخته سناء التي كانت تكبرني بعامين، لنجري في الحديقة الخلفية حيث الأشجار متشابكة الأغصان كأسرار صغيرة.

كانت سناء مختلفة، صوتها ناعم، لكن في عينيها قوة خفية تشدّك دون أن تعرف لماذا. لم أكن أدرك حينها أن تلك العيون الصغيرة ستعود بعد سنين لتصبح أحد محاور قدرتي.

قال أسامة وهو يشير إلى الباب الخشبي الداكن، هذه غرفة أبي، ممنوع دخولها. ابتسمت سناء بخبث طفولي وقالت: وماذا لو دخلنا؟ ضحكنا، لكن قلب الطفل المتمرّد في داخلي لم يترك الفكرة تموت.

في مساء ذلك اليوم، حين غفت العائلة في قيلولتها، تسللتُ إلى الممر الضيق المؤدي إلى الباب. كانت الأرض تبرّد تحت قدمي، وصوت أنفاسي يعلو كأنني أقترف خطيئة صغيرة، دفعتُ الباب بخفة، فانفتح بصوتٍ خافت، كأنه يتأمّر معي.

الغرفة كانت أشبه بمملكة سرية، مكتب خشبي عريض تنتثر فوقه أوراق مكتوبة بخط أنيق، رفوف ممتلئة بكتب صفراء وحمراء وسوداء، ورائحة الورق القديم تعبق في المكان كعطرٍ من زمنٍ آخر.

هناك، على أحد الرفوف، وقع بصري على كتاب أصفر وأسود، غلافه كان بسيطًا لكنه بدا لي كأنه يناديني باسمي. ممدتُ يدي المرتجفة وسحبته ببطء، أخفيته تحت قميصي الصغير، وأسرعتُ خارج الغرفة، قلبي يخفق كأنني سرقتُ بابًا إلى عالمٍ آخر.

في طريق العودة إلى بغداد، كنتُ أجلس في المقعد الخلفي، يدي فوق صدري حيث أخفيتُ الكتاب، وخيالي يركض أسرع من السيارة.

لم أكن أعرف شيئًا عن صاحبه، ولا عن معنى عنوانه، لكنني كنت أشعر أنني أمسك بمفتاح سرّي.

لاحقًا، حين كبرت عرفت أن الكتاب كان لـ جان بول سارتر، وأنه لم يكن مجرد كتاب، بل جرس أول أيقظني على أسئلة الوجود والحرية والمصير.

اليوم، حين أعود بذاكرتي إلى تلك اللحظة، أدرك أن حياتي كلها بدأت من هناك: من غرفة صغيرة في بيتٍ بعيد، ومن كتابٍ خبأته تحت قميصي كطفلٍ يخفي كنزه، ومن عينيْن واسعتين لفتاةٍ لم أعرف وقتها أنها ستصبح ظلًا طويلًا في حكايتي. كتبتُ في دفثري الأزرق عن تلك اللحظة بعد سنوات: لم أسرق كتابًا، بل سرقني الكتاب، وأخذني إلى حياةٍ لم أكن أعرف أنني سأعيشها.

الفصل الثالث : الجيتار والفنادق

لم أعرف كيف وجدتني هناك، في زاوية غرفة صغيرة يعلوها دخان كثيف، بين أصوات كؤوس تتناثر على طاولات خشبية، وأضواء صفراء خافتة تتدلى من مصابيح مائلة، كان كل شيء حولي يضجُ بالحياة، لكنني كنت أشعر أنني غريبٌ عن المشهد، حتى وأنا في قلبه.

تعلمتُ العزف على الجيتار مبكراً. كانت أوتاره تشبه أصابعي في الارتباك والحنين، وكلما مررت عليها، أشعر أنني أفتح باباً سرياً في صدري، باباً يُفضي إلى مكانٍ لا أملك خارطته بعد.

أصدقائي في الفرقة كانوا يعيشون اللحظة بكل تفاصيلها، الليالي الطويلة في الحانات الصغيرة، حفلات الفنادق الفاخرة، الموسيقى الصاخبة التي تبتلع الضجيج الداخلي. أما أنا فكنْتُ أبحث بين النغمات عن شيء آخر، عن سؤالٍ لم أجد له جواباً بعد.

في إحدى الحفلات، كنا نعزف في صالة مضاءة بأنوار خافتة، الوجوه حولي كانت سكرى، لا تفرّق بين الحلم والواقع. ضحكات النساء تختلط بأصوات الكؤوس المتصادمة، ورائحة العطر الممزوج بالخمرة تملأ المكان كغيمةٍ دافئة. كنْتُ أعزف

نغمة حزينة دون وعي، نغمة بدت غريبة عن الصخب من حولي، حتى التفت إليّ أحد أعضاء الفرقة هامسًا: أسمر، نحن في حفلة، لا جنازة! ابتسمتُ بلا جواب.

لم يكن يعلم أنني لم أكن أعزف لهم أصلاً، كنتُ أعزف لنفسٍ تبحث عن مخرج.

بعد منتصف الليل، كنت أعود وحدي إلى البيت على دراجتي النحيلة. الطرق شبه خالية، وأصوات المدينة تتلاشى في البعيد كأنها تتثائب في وجه الفجر.

كنتُ أردد في سري : إلى أين تأخذني هذه الحياة؟ هل وُجدنا فقط لنرقص على أنغامنا ونمضي؟

في أحد تلك الليالي، بعد حفلة امتدت حتى الصباح في فندق كبير على ضفاف دجلة، خرجتُ إلى الشرفة العالية المطلّة على النهر. كان الليل ساكنًا إلا من صوت الماء وهو يعانق حواف الضفاف، والريح الخفيفة تعبت بخصلات شعري المبللة بالتعب. هناك، في تلك اللحظة، شعرت أنني أعزف في فراغٍ كوني، كأن أصابعي تبحث عن نغمةٍ واحدة تستطيع أن تجيب عن كل هذا التيه.

ذات مرة، سألتني فتاة جلست بجانبني بعد إحدى الحفلات :لماذا تبدو مختلفًا عن البقية؟ لماذا تعزف وكأنك تبكي؟ نظرتُ في عينيها طويلاً، ثم قلت :لأنني أعزف لأبحث عن الله، حتى في هذه الفوضى .ضحكت بخفة وهي ترفع كأسها في وجهي :الله في غير هذه الأماكن يا أسمر .ابتسمتُ ولم أجب، كنت أعلم أنها مخطئة، أو ربما كنت أعلم أنني أنا المخطئ.

شيئاً فشيئاً، بدأتُ أشعر أن الموسيقى نفسها لم تعد تكفي . كلما غصتُ في النغم، زاد عطشي بدل أن يرتوي .كنتُ أعود بعد كل حفلة إلى صومعتي الصغيرة، أخلع معطفي المبلل برائحة الدخان، وأجلس على كرسيي الهزاز، أفتح الدفتر الأزرق، وأكتب : كل هذا الصخب، كل هذا الليل وما زال شيء ما ناقصاً، أبحث عن نعمة لا يسمعها غيري، عن وترٍ يربط الأرض بالسماء.

لم أكن أعلم أن تلك الحفلات، وتلك الليالي المبعثرة بين الفنادق والحانات، كانت الممر الخفي الذي يقودني إلى طريقٍ آخر، طريقٍ لا تُعزف فيه الأوتار بالأصابع، بل بالروح.

كان قلبي يدّخر عطشه لرحلة أبعد، رحلة تبدأ من الزاوية
الصوفية، حيث لا ضجيج ولا كؤوس ولا صخب، بل صوت
واحد يملأ كل شيء:
هو... هو... هو....

الفصل الرابع : سناء ، المدى القريب والبعيد

كان المساء هادئاً على غير عادة بغداد، نسيم خفيف يمرّ على وجهي وأنا أجلس قرب النافذة، أتأمل أضواء الشارع التي تتمايل كأنها أسرار متعبة .رَنّ هاتفي فجأة.

لم أكن قد سمعت صوتها منذ سنوات، أسمر ، هل تذكرني؟ سكّث لحظة طويلة، شعرتُ أن أنفاسي توقفت، وكأنني أستعيد في ثانية طفولتي كلها، الحديقة الخلفية في بيت شهربان، شقاوتنا الصغيرة، والباب الخشبي الداكن لغرفة أبيها .قلتُ بصوتٍ أقرب إلى الهمس :كيف أنسى يا سناء؟

تحدثنا طويلاً في تلك المكالمات الأولى، كأننا لم ننفصل يوماً . ضحكت كما كانت تفعل وهي طفلة، ضحكة خافتة لكنها عميقة، كأنها تلمس شيئاً في داخلي لا أعرفه أنا نفسي.

تحدثت عن حياتها، زواجها الأول الذي انتهى دون مبرر، ابنها الذي اختار أن يبقى معها، البيت الصغير الذي يطل على شجرة ليمون.

أما أنا ...فكنتُ صامتاً أغلب الوقت، أستمع أكثر مما أتكلم، كأن صوتها نفسه كان موسيقى غائبة كنت أبحث عنها منذ سنين.

بدأت الرسائل تتوالى بعدها، كلمات قصيرة لا تقول شيئًا لكنها تقول كل شيء.

كنتُ أقرأ بين سطورها ما لا يُكتب، حنين طفولي إلى ماضٍ بعيد، وشوقٌ غامض لحاضر لم نعرفه بعد.

كتبْتُ لها ذات ليلة :سناء، كل ما بيننا يشبه ضوء القمر، قريب من العين، بعيد عن اليد.ردّت بكلمة واحدة :أعرف.

مرت أيام، ثم أسابيع، حتى جاء المساء الذي سمعت فيه صوتها لأول مرة منذ عقود .كنتُ أجلس في صومعتي، حول مكتبي المكس بالكتب والدفاتر، حين رن الهاتف ثانية، أجبْتُ وأنا أقاوم ارتباكِي، مرحبًا سناء.

ضحكت بخفة وقالت :كيف تعرف أنني أنا؟ قلتُ: لأن قلبي يعرف صوتك قبل أذني. ساد صمت قصير بيننا، ثم قالت بصوت خافت :أسمر، هل تعتقد أننا تأخرنا كثيرًا؟ لم أجب .كنتُ أعرف أن السؤال ليس عَنَّا فقط، بل عن العمر الذي فات، عن كل ما ضاع مِنَّا ونحن نحاول أن نكون أشخاصًا آخرين .ومع ذلك، كنا ننحرف أكثر في حديثنا، كأن هناك قوة خفية كانت تعيد جمع أشلاءنا المتناثرة.

أحيانًا كانت تقول لي :أشعر أنك تشبهني، حتى في صمتي .
وأحيانًا كنتُ أكتب لها في دفثري الأزرق :سناء، لستِ امرأة في
حياتي، أنتِ مرآة حياتي نفسها .لكن شيئًا في أعماقي كان
يعرف، أن هذا الخيط الذي جمعنا من جديد يحمل امتحانًا خفيًا.
كنتُ أشعر أن الحنين يمكن أن يتحول بسهولة إلى قيدٍ جديد،
وأن الحب، إذا لم يُصَفَّ من الرغبة، قد يعطّل رحلة الروح نحو
أفقها الأوسع.

كانت سناء قريبة بما يكفي لتوقظ شغفي، وبعيدة بما يكفي
لتعلّمني الفقد قبل أن أفقدها .كتبْتُ في دفثري الأزرق :ربما جئتُ
لتدليّني لا لتكوني لي .ربما كنتِ الطريق، لا المحطة.
ذات مساء، قالت سناء فجأة :أسمر سأزورك يومًا، لنقرأ معًا .
سكْتُ طويلًا، أحسستُ أن الدم توقف في عروقي للحظة، ثم قلتُ
بهدهوء :هل تظنين أن الأبواب مفتوحة لنا؟ ضحكت وقالت :دعنا
نحلم فقط، الحلم لا يُحاكمه أحد.

في تلك الليلة، جلستُ وحدي في صومعتي، أطفأت الأنوار،
وأغمضتُ عيني .كان صوتها ما يزال يتردد في رأسي، لكن
خلفه، كنتُ أسمع نداءً أبعد، نداءً لا يشبه صوت سناء ولا

صوتي، نداءً لم أعرف أنه سيقودني إلى طريقٍ آخر، طريق يبدأ
من الحب الأرضي، وينتهي عند الحب المطلق.

الفصل الخامس : الزاوية الأولى

كان الليل يهبط على بغداد ببطء، كأن المدينة تُطفئ أنوارها لتدخل في تأمل خفي .سرتُ في الأزقة الضيقة قرب شارع الرشيد، خطايَ مترددة، أبحث عن شيء لم أعرف اسمه بعد، لكنني كنتُ أشعر أنه يناديني من بعيد .عند زاوية شارع صغير، لمحْتُ بابًا خشبيًا قديمًا، فوقه لوحة متآكلة كتب عليها بخطٍ أصيل " زاوية المحبة والذكر .ترددت لحظة، ثم دفعتُ الباب بيدي ودخلت .رائحة البخور استقبلتني أولًا، ثم خيوط الضوء المتسربة من قناديل زيتية معلقة في السقف .كان المكان صغيرًا، أرضيته مفروشة بحصران قديمة، والجدران مغطاة بآيات قرآنية مكتوبة بخط الثلث .جلس في منتصف القاعة رجل مسنّ ذو لحية بيضاء قصيرة، عيناه لامعتان كنافذتين مفتوحتين على سرّ أوسع من المكان .حوّله دائرة من المريدين، يهمسون بأصوات خافتة " الله... الله... الله..."

اقتربتُ وجلسْتُ في طرف الحلقة، وأنا أستمع إلى هذا النبض الجماعي الذي يشبه أنفاس الكون .بدأ الشيخ يتحدث بصوت منخفض لكنه عميق :يا أبنائي ...الطريق ليس في كثرة الكتب

ولا في طول العبادات، الطريق أن تضع قلبك في يد الله، ثم تتركه يقودك حيث يشاء. كنتُ أستمع إليه كمن يسمع صوته الداخلي لأول مرة. كل كلمة منه كانت ترتدّ في صدري كصدى أعرفه قبل أن أسمعه.

بعد انتهاء الذكر، بقيت جالسًا في مكاني حتى انفضّ المريدون. اقترب مني الشيخ، جلس إلى جوارني دون أن ينظر في عيني، ووضع يده برفق على كتفي. لم يقل شيئًا، لكنني شعرت أن كل شيء قد قيل.

في تلك الليلة، لم أستطع النوم. كان صوت الشيخ يملأ رأسي رغم أنه لم ينطق سوى القليل، وكان همس المريدين يتردد داخلي: "الله... الله... الله...".

جلستُ على كرسيي الهزاز قرب النافذة، فتحتُ الدفتر الأزرق، وكتبت: هنا، في هذه الزاوية الصغيرة، شعرتُ للمرة الأولى أنني أعود إلى بيتي، بيتي الذي لم أعرفه من قبل!

مرت أسابيع وأنا أعود إلى الزاوية كل ليلة. كنتُ أجلس في الخلوة، أردد معهم الذكر حتى يغيب كل ما حولي. كان الليل يُمحي شيئًا فشيئًا، والزمن نفسه يبدو كأنه يزوب داخل الأسماء.

لم يعد يهمني إن كانت سناء قد كتبت لي أم لا، ولا إن كنت سأعزف الجيتار في الحفلة القادمة.

شيء آخر كان ينبت في داخلي، شيء يشبه السكينة، لكنها سكينة ممزوجة بعطش أكبر.

وذاث ليلة، بينما كنت في ذكرٍ عميق، أغمضتُ عيني ورأيت الشيخ أمامي في نور أبيض. ابتسم وهو يشير إلى صدري، ثم غاب.

استيقظتُ من المشاهدة ودموعي تتساب دون أن أعرف لماذا . أدركتُ أن العلاقة بيننا لم تكن علاقة جسدٍ حاضر مع جسد، ولا تلميذ مع معلم، كانت رابطة روحٍ بروح . لم يكن يرشدني بالكلمات، بل بالتجلي.

منذ تلك الليلة، صارت الزاوية بيتي الآخر، وصار الشيخ مرآتي التي أرى فيها ما كنت أخفيه عن نفسي.

كتبْتُ في دفثري الأزرق :لم أعد أبحث عن الله في الكتب، ولا في وجوه العابرين، لقد وجدته بين أنفاسي وأنا أردد اسمه، وجدته في صمت الشيخ، وفي دموعي التي لم أطلبها ولم أتحم بها.

لم أكن أعلم وقتها أن هذا الباب الذي فتحته بخطوة واحدة
سيأخذني إلى طرقٍ لم أكن مستعدًا لرؤيتها بعد، طرق من العشق
والفناء، ومن الألم والفقد، ومن السجن والحرية. لكنني كنتُ أعلم
شيئًا واحدًا، أن شيئًا بداخلي قد بدأ يستيقظ، ولم يعد هناك طريق
للعودة.

الفصل السادس: المراقد البغدادية

كنتُ أستيظ قبل الفجر، أفتح نافذة صومعتي الصغيرة، وأتنفس هواء بغداد الممزوج برائحة الغبار والبرد والدخان، ثم أخرج إلى الطرقات الهادئة قبل أن تصحو المدينة.

كانت تلك الفترة بداية رحلة أخرى، رحلة بين المراقد الصوفية المنتشرة في بغداد، حيث كنت أبحث عن صوتٍ أبعد من كل الأصوات، عن أثرٍ لروحي في أرواح من سبقوني إلى الله.

أول خطوة كانت عند مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني. وصلت قبل الشروق، كان المكان شبه خالٍ إلا من رجالٍ يجلسون قرب الضريح تغمر وجوههم ملامح السكينة القديمة. دخلت بخطوات مترددة، حتى وصلت إلى الشباك النحاسي الذي يغطي القبر، لم ألمسه، وقفت فقط أستمع إلى الصمت.

هناك، شعرت أنني أسمع أنفاسًا قديمة، أن كل تسبيحة ذكرت هنا منذ قرون ما تزال عالقة في جدران القبة، كأن المدى يردها إلى الآن " الله... الله... الله...".

جلست في زاوية القاعة وأغمضت عيني .لم أرَ الشيخ الكيلاني بعينيّ، لكنني شعرت بحضوره، كأن روحه كانت تقترب لتلمس قلبي دون أن تقول شيئاً.

كتبت في دفثري الأزرق تلك الليلة :هنا .تعلمت أن الأولياء لا يموتون، وأن الذكر الذي يخرج من قلوبهم يبقى حياً في الأرض حتى آخر الزمان.

بعد أيام، ذهبت إلى مرقد السيد إدريس في الكرادة .كان المكان أكثر بساطة، لكن البساطة نفسها كانت جزءاً من المعجزة .رجل مسنّ جلس إلى جوارى هناك وقال بصوت خافت :لا تبحث عن الله بعينك يا بني، ابحث عنه بقلبك .ابتسمتُ وأنا أردد في سري :القلب ...هو الباب.

بدأت رحلتي تتوسع مع الوقت .زرت مراقد الاولياء القديمة القريبة من نهر دجلة،

حيث تختلط أنفاس الذاكرين مع رائحة الشموع المذابة، وحيث يعلو صوت البكاء تارة ويتسرب صمت عميق تارة أخرى .كنتُ أمشي بين القباب البيضاء والخضراء، ألمس جدرانها بيدي،

وأشعر كأن الجدران نفسها تحفظ سرّاً لا تريد أن تبوح به إلا لمن يعرف كيف يصغي.

في كل مرقد، كنت أبحث عن شيء لا يُسمع، ولا يُكتب، ولا يُقال. كنتُ أبحث عن أنفاس الله في خلقه، عن الخيط الرفيع الذي يربط القلب بالسماء، عن تلك اللمحة الخفية التي تغير كل شيء، ثم تخنفي... لتتركك تشتاق إليها أبد الدهر.

في إحدى الليالي، بعد عودتي من زيارة طويلة لمراقد الكرخ، جلست في صومعتي، أطفأت الأضواء، وفتحت الدفتر الأزرق. كتبت: كلما زرتُ مرقدًا، أدركت أن الله لا يسكن جدرانًا ولا قبابًا، لكنه يترك أنفاسه في القلوب التي أحبته حتى الذوبان.

كانت سناء تكتب لي بين حينٍ وآخر. لم تختفِ من حياتي، لكن صوته لم يعد يملأني كما كان، صارت تشبه ظلًا بعيدًا، ظلًا جميلًا يذكرني أن الحنين طريقٌ، لكنه ليس الغاية. بدأ قلبي يعرف أن الحب، مهما كان دفينًا، ليس إلا صورة صغيرة من حبٍّ أكبر، حبٍّ لا يقيدك بأحد، ولا يتركك لشيء، حبٍّ يرفعك فوق كل الفقد، ويجعلك حرّاً من كل قيد.

هكذا بدأت أشعر أنني أقترّب من عتبةٍ جديدة .أن الزاوية والمراقب
والذكر ليست إلا مقدمة الرحلة، رحلةٍ ستأخذني قريبًا إلى ما هو
أبعد من كل ذلك، إلى امتحانٍ لا مفر منه، إلى سجنٍ سيقيد
الجسد ليحرر الروح.

الفصل السابع : الصدع الأول

لم تكن سناء يومًا بعيدة عني، حتى في صمتي، حتى وأنا أغلق الأبواب على نفسي، كنت أشعر بأنفاسها تتسلل من شقوق الذاكرة، كأنها ظلٌ قديم لا يغيب مهما طال النهار. لكن شيئًا ما بدأ يتغير!

في كل مرة أجلس في الزاوية، بين أنفاس المريدين ونداءات الذكر، كنتُ أشعر أن قلبي يسير في اتجاهٍ وصوتها يسير في اتجاه آخر. كنتُ أسمع الشيخ يقول في أحد الدروس: يا بني، الحب الذي يقيّدك عن الله ليس حبًّا، إنما هو امتحانٌ لحريّتك.

حينها، كأن سهمًا خفيًا اخترق صدري. هل يمكن أن يكون حبي لسناء امتحانًا؟ هل يمكن أن يتحول هذا الحنين الدافئ إلى قيدٍ خفيٍّ يمنعني من الصعود؟ بدأت رسائلها تقلّ، وكلماتها تصبح أكثر غموضًا.

كتبت لي ذات مساء: أَسْمَر، أشعر أننا نركض وراء شيءٍ لن نصل إليه.

قرأت الرسالة مراراً، ثم أغلقت هاتفني دون أن أجيب .لم يكن في قلبي غضب، كان فيه حزن صامت، حزن يشبه إدراك الحقيقة قبل أن تُقال.

في الليالي التالية، جلستُ أمام نافذتي، أراقب أضواء بغداد وهي تنوب في نهر دجلة، وأكتب في دفثري الأزرق :يا سناء...لو علمت كم أحبك، لابتعدت قبلي حتى لا أعلق بك أكثر .لكنني أعلم الآن، أن الحنين بابٌ صغير إلى حبٍ أكبر منا.

وذات مساء، هاتفني رنٌّ عند منتصف الليل، كان صوتها مرتجعاً، مشبعاً بما لم يُقل :أسمر، أنا خائفة من الغد .أجبتها بصوتٍ مبجوح :وأنا خائف منك يا سناء، خائف أن تأخذيني من الطريق الذي بدأت أراه.

سكتت طويلاً، ثم قالت كلمة واحدة فقط :ربما حان وقت الصمت. في الأيام التالية، لم تعد تتصل، لم تعد تكتب، كأن العالم قرر فجأة أن يعزلنا ليضعني أمام نفسي عارياً من كل شيء .كنتُ أعود إلى الزاوية أكثر من قبل، أردد الذكر حتى يغيب صوتها في داخلي، لكن كلما حاولتُ الفناء في اسم الله، كانت صورتها

تعود في المشاهدة، تبتسم ثم تخنفي، كأنها تقول "أكمل الطريق، ليس مكاني هنا".

في إحدى الليالي جلست قرب ضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني، أضع يدي على القضبان النحاسية الباردة، وأهمس :يا الله، خذ مني كل ما يمنعي عنك، حتى لو كان أحب الأشياء إليّ .كانت دموعي تنساب في صمت، وشعرت أنني أتنازل عن جزء من قلبي، لكنني في العمق كنت أعرف أن هذا التنازل ليس فقداً، بل عبوراً.

كتبت في دفثري الأزرق :سواء، لم أفقدك، لقد أعدتكِ إلى مكانك الحقيقي في روحي، ذكرى نقية بلا قيود، ظلّ جميل يعلمني أن الحب الذي يحررنا أوسع من كل امتلاك.

في تلك المرحلة، بدأت أفهم أن كل صدع في القلب هو في الحقيقة نافذة إلى مقامٍ جديد، وأن الحنين الذي كان يعذبني بالشوق إليها، لم يكن إلا تمهيداً للعطش الأكبر، العطش إلى وجهٍ لا يغيب.

الفصل الثامن : الكرسي الهزاز

كان البيت ساكنًا، صمتٌ كثيفٌ يملأُ الغرف كأنه نسيجٌ خفيٌّ من غيابٍ طويلٍ. جلستُ في صومعتي الصغيرة، الغرفة التي اتخذتها ملاذًا منذ شهور، حيث لا يسمع أحدٌ صوتي إلا الجدران والدفتر الأزرق. أمام النافذة، كرسيٌّ هزازٌ خشبيٌّ قديم، ورائحة القهوة تتسلل من المطبخ، وموسيقى بعيدة تنبعث من الجهة الأخرى من الحي كأنها صدى حياةٍ لم أعد أنتمي إليها.

وضعتُ رأسي على حافة الكرسي وأغمضت عيني. ترددت في داخلي صورة سناء للحظة، ثم تلاشت كظلٍّ على صفحة ماء. همست لنفسِي: ما أثقل هذا القلب حين يتعلق بما لا يبقى، وما أوسع هذا الصدر حين يتحرر.

فتحتُ الدفتر الأزرق، قلمي في يدي يرتجف كطفلٍ لا يعرف كيف يبدأ الكلام، وكتبت: كل هذا العمر، وما زلتُ أتعلم كيف أكون وحيدًا بلا خوف، وكيف أرى الله في صمتي أكثر مما أراه في ضجيج الآخرين.

في تلك الفترة، تحوّل الكرسي الهزاز إلى ما يشبه عرشًا سرّيًا. لم يكن عرشًا لأنني ملك، بل لأنه كان مكاني الذي أعلو فيه فوق

الفوضى .كنتُ أجلس لساعات طويلة أراقب الليل من النافذة، الشارع الفارغ، ظلال المارة القلائل، أصوات السيارات البعيدة وهي تذوب في صمت المدينة .كل شيء في الخارج كان يبدو مألوفاً، لكن شيئاً في داخلي كان ينكسر ليفسح الطريق لشيء جديد يولد.

بدأت أقرأ كثيراً، كل ما وقعت عليه يدي من كتب :ابن عربي يفتح لي أبواب الوجود .الحلاج يعلمني أن العشق الإلهي لا يُحتمل .سارتر يعيدني إلى أسئلة الحرية والمصير .

كنتُ أتنقل بين هذه العوالم المتناقضة، أبحث عن نقطة تلتقي فيها الروح والفكر عن خيط واحد يمسك هذا الكون المبعثر ويمنحه معنى.

وذات ليلة، أطفأت الأنوار، استلقيت على الكرسي الهزاز، وأغمضت عيني .سمعت صوت أنفاسي يتردد في الغرفة كأنها ترجع إليّ من بعيد، ثم فجأة، رأيت في داخلي حلقة من نور، وفي مركزها وجه الشيخ، يبتسم دون كلام، كان يشير إلى قلبي بيده،

ثم يذوب في النور شيئًا فشيئًا. استيقظتُ من المشاهدة وقلبي يخفق بقوة، وكتبت في الدفتر الأزرق: أدركت الليلة أن الطريق إلى الله لا يمر عبر الكتب وحدها، ولا عبر الأسماء، بل عبر تسليم القلب حتى آخر ذرة من الضوء فيه. لكنني كنتُ أشعر أن هذه العزلة، رغم هدوئها، ليست إلا مقدمة العاصفة.

كنتُ أسمع بين الحين والآخر همسات عن الأوضاع السياسية، وعن قبضات النظام التي تشتدّ على كل من يكتب أو يفكر بصوتٍ مختلف. كنت أعلم أن كلماتي في الدفتر الأزرق، وحتى صمتي أحيانًا، قد تكون سببًا في امتحانٍ أكبر لم أكن أستطيع الهرب منه.

في إحدى الليالي كتبت: يا الله، إن كان لا بدّ من القيد، فاجعل قيد الجسد بابًا لتحرير الروح. لم أكن أعلم أنني كنت أكتب نبوءة الأيام القادمة، ولا أن الكرسي الهزاز الذي كان عرشي السري سيبقى فارغًا طويلًا بعد أن آخذني الطريق إلى ظلمةٍ أعمق، ظلمة السجن.

الفصل التاسع : طريق الكشف

كانت بغداد غارقة في صمتٍ ثَقِيلٍ تلك الليلة، كأن المدينة نفسها تحبس أنفاسها بانتظار شيءٍ مجهول. جلستُ على كرسيٍّ خشبي صغير في زاوية الغرفة المظلمة، وبين يدي مسبحتي القديمة، أقلب خرزاتها كمن يعدّ أنفاس الوجود نفسه.

دعاني الشيخ إلى الخلوة للمرة الأولى، وقال بصوته الهادئ الذي يشبه ماءً يسري تحت رملٍ عطشٍ: يا أسمر، كل ما قرأته بعقلك سيذوب هنا، كل ما تعلّق به قلبك سيتلاشى، وستبقى أنت، وأنت وحدك. لم أسأله عن شيء. كنتُ أعلم أن الطريق لا يشرحه كلام، بل تكشفه المعاناة.

دخلت الزاوية في تلك الليلة والأنوار مطفأة، البخور يتسلل برائحةٍ خفيفة تشبه ذاكرة غامضة، وصوت المريدين في الخارج يتلاشى تدريجيًا، حتى بقيتُ أنا، والصمت. أغمضت عيني، وبدأت أردد :
الله... الله... الله... مع كل نفس، كنتُ أشعر أن طبقة من ذاتي تسقط، كأنني أخلع جسدًا وراء جسد، قيدًا وراء قيد، حتى لم يبقَ مني إلا نقطة صغيرة من نور.

بعد ساعات ، أو ربما دقائق، لم أعد أعرف للزمن معنى ، شعرتُ أن جسدي صار خفيفًا جدًّا، حتى كأنني أطفو في فضاءٍ داخلي بلا جدران .لم أرَ شيئًا بعيني، لكن قلبي كان يبصر ما لا يُقال .رأيتني واقفًا في بستانٍ واسع، أشجار باسقة تتمايل في نسيمٍ لا يشبه نسيم الأرض، وميض ضوءٍ أبيض يملأ الفضاء حتى صارت الظلال نفسها مضيئة .في قلب البستان، رأيت الشيخ جالسًا على حصيرٍ قديم عيناه مغمضتان، وابتسامة صافية تشرق على وجهه .مدّ يده اليمنى نحوي دون أن يفتح عينيه، وأشار إلى صدري، وقال بصوتٍ لم أسمعهُ بأذني :يا أسمر، الباب فيك، ليس خارجك.

فتحت عيني فجأة، كانت الغرفة ساكنة كما تركتها، لكنني لم أكن أنا كما كنتُ .الدموع سالت دون أن أعرف لماذا، ولأول مرة شعرتُ أن جسدي مجرد قشرة، وأنني شيء آخر أوسع من العظم واللحم والذاكرة.

خرجتُ من الخلوة عند الفجر، كانت شمس بغداد ترتفع ببطء على بيوتها القديمة، الحمام يحلق فوق المآذن، وصوت الباعة في الشوارع يبدأ في ملء النهار .لكنني كنتُ أسمع صوتًا آخر

خلف كل الأصوات :صوتًا صافيًا، خفيًا، يشبه نغمةً بعيدة لا يسمعها إلا من فقد كل شيء إلا الله.

في صومعتي، فتحتُ الدفتر الأزرق وكتبت :الطريق ليس في الزوايا، ولا في الكتب، ولا في وجوه الشيوخ، الطريق في داخلي، في ذلك الباب الصغير المخفي خلف أنفاسي.

اليوم ..فتحتُ عيني لأول مرة .ومع ذلك، كنتُ أعلم أن هذا الكشف الأول ليس النهاية، بل البداية الحقيقية، وأن كل خطوة أعمق في الطريق ستتطلب مني تجريّدًا أكبر، وأن القادم سيكون امتحانًا يختبر كل ما ظننته يقينًا.

الفصل العاشر : القبضة

كانت بغداد مساء ذلك اليوم أثقل من أي وقت مضى، السماء ملبّدة بغبارٍ كثيف، والهواء محمّل بصدى أخبار الحرب وصرير الأبواب الموصدة. كنت عائداً من الزاوية بعد جلسة ذكر طويلة، روحي خفيفة، وقلبي ممتلئ بسكونٍ نادر، حتى شعرت أن الأرض نفسها تتنفس بي. لكن عند أول منعطف قرب بيتي، انزلقت الأرض من تحت قدمي. سيارتان سوداوان توقفتا فجأة، أربعة رجال بملابس مدنية نزلوا منها بخطوات سريعة، قبل أن أستوعب شيئاً، كانت قبضتهم على كتفيّ كأنها قفلٌ محكم، وصوت أحدهم يصرخ ببرود: أَسْمَر، أنت مطلوب للتحقيق. سألته بصوتٍ ثابت رغم ارتعاش قلبي: ولماذا؟ نظر إليّ باستهزاء وهمس: ستعرف عندما يحين الوقت.

اقتادوني إلى السيارة ضيقة الداخل وعيناوي معصوبتان، ورائحة العرق والدخان والحديد تصفع أنفي. كل صوت حولي بدا باهتاً، حتى هدير المحرك كان يبدو بعيداً، لكن قلبي كان يدوي كطبلية في صمت المقبرة. لم أسألهم شيئاً، كنت أعلم أن الصمت في حضرة الخوف هو أبلغ لغة نجاة.

وصلنا إلى المبنى بعد دقائق بدت كقرون. نزعوا العصابة عن عينيّ، فأبصرتُ جدارًا رماديًا متسخًا، وأرضية إسمنتية رطبة، ورائحة رطوبة ممزوجة بآثار صرخاتٍ قديمة.

في الغرفة الضيقة جلس رجل في منتصف الخمسينيات، ملامحه قاسية لكن عينيه حادثان مثل شفرتين. وضع أمامه ملفًا سميكًا وقال ببرود: نعرف كل شيء عنك يا أسمر، نعرف كتبك، جلساتك، حلقات الذكر التي ترتادها. ابترسنتُ بهدوء رغم الخوف الذي يزحف داخلي: أنا لم أفعل شيئًا سوى أنني أدعو الناس أن يذكروا الله. ضرب الطاولة بيده بعنف وقال: لا نريد من الناس أن يفكروا، ولا نريد من الناس أن يتذكروا شيئًا إلا نحن!

أخذوني بعدها إلى زنزانة مظلمة، باب حديدي سميك يُغلق خلفي كأنه يبتلع صوتي. لا نافذة، ولا ضوء إلا شقّ صغير في السقف يرشح منه خيط أبيض باهت. جلست على الأرض الباردة، وضعت رأسي بين ركبتي، وأغمضت عينيّ. كل شيء في الخارج تلاشى، ولم يبقَ لي إلا نفس يتردد في صدري.

في الليل الأول، سمعت صرخاتٍ تأتي من بعيد، صرخات لم أعرف إن كانت بشرية أم صدى داخلي لألمي الذي بدأ يتسلل

ببطء . رفعت رأسي نحو الشق الضيق في السقف، همست : يا الله.. إن كان هذا امتحانك، فلا تتركني وحدي.

الأيام التالية لم تكن أيامًا بالمعنى الحقيقي، كانت امتدادًا واحدًا من الظلام، مخلوطًا برائحة العرق والدم، وبصوت السلاسل وهي تُجرّ فوق الأرضية الإسمنتية . التعذيب لم يكن جسديًا فقط، بل نفسيًا أيضًا . كانوا يلقون بي في زنزانة مزدوجة مع أشخاص لا يشبهونني في شيء، يتحدثون عن الهرب والموت والانتقام، بينما أنا كنت أحاول فقط أن أبقى حيًا بالذكر . كنت أردد في داخلي طوال الوقت :

هو ... هو ... هو "...حتى صار صوته أعلى من صوت الشياطين، وأعلى من هدير الخوف في رأسي.

و ذات ليلة، بعد جلسة تحقيق قاسية، عدت إلى الزنزانة مترنحًا، وجسدي كله يرتجف من التعب . استلقيت على ظهري فوق الأرض الباردة، وأغمضت عيني . فجأة، شعرت أن الجدران تذوب، وأن سقف الزنزانة انفتح على سماء واسعة مليئة بالنجوم . رأيت الشيخ هناك، يبتسم في صمت، ويشير إليّ بيده : اصبر يا أسمر، فالقيود من حديد، لكن الروح أوسع من الحديد.

حين فتحت عيني، كنت ما أزال في الزنزانة، لكنني أدركت أن
 جسدي هنا فقط، أما روحي، فقد وجدت طريقها إلى فضاءٍ
 آخر، فضاءٍ لا تصل إليه يد سجان ولا سوط جلاد.
 في إحدى الليالي كتبت على جدار الزنزانة بأظفري: أدخلوني
 السجن ليكسروا صوتي، لكنني وجدت صوتًا لم يكن لي من قبل.

الفصل الحادي عشر : أنفاس الحديد

لم أعد أعرف كم يوماً مضى، ولا كم ليلةً انقضت . في السجن، الزمن ليس ساعات ولا أياماً، إنه جرحٌ مفتوح لا يلتئم . كانت الزنزانة صغيرة بالكاد تسع جسدي، جدرانها رطبة كأنها تبكي، وأرضيتها الإسمنتية باردة حتى في ذروة الصيف . رائحة الحديد المختلط بالدم العالق في الممرات كانت تلتصق بأنفاسي كخيوطٍ من دخان لا ينقضي.

ومع ذلك، كان هناك شيء في داخلي أوسع من الجدران، شيء بدأ يولد في الظلمة، شيء يشبه الحرية. في الأيام الأولى، كانوا ينهالون عليّ بالتحقيق والصفعات والركل، يسألونني عن جلسات الذكر وعن المريدين وعن الشيخ، وكأنهم يريدون أن يحاكموا الصمت نفسه . في كل جلسة كانوا يظنون أنهم يكسرونني، لكنني كنت أسمع صوتاً داخلياً يقول لي : اصبر، فالقيد للروح باب، لا جدار.

بعد أسابيع، بدأت أتعرف على بعض المساجين في الزنازين المجاورة، وجوههم شاحبة، عيونهم مطفأة إلا من شرارات صغيرة من الأمل.

في الليل، حين يخفت وقع الأقدام في الممرات، كنت أبدأ الذكر بصوتٍ منخفضٍ " هو... هو... هو...". شيئاً فشيئاً، بدأت الأصوات الأخرى تهمس معي من الزنازين المختلفة، حتى صار الليل كله يرتجّ بأنفاسنا.

ذات ليلة، اقترب من باب زنزانتني رجل نحيل الوجه، ملامحه متعبة لكن عينيه ممتلئتان بأسئلة بلا أجوبة. قال بصوت خافت : أسمر، ماذا تفعل حين تردد هذا الاسم؟ ابتسمتُ رغم العتمة وقلت :أبحث عن نفسي، ثم أجدها تذوب فيه .جلس قرب الباب وقال :علّمني .من تلك الليلة، صار يجلس معي كل مساء، نردد معاً أسماء الله حتى يغيب كل شيء حولنا إلا الصوت الداخلي الذي لا ينطفئ.

لم يمر وقت طويل حتى بدأت الوجوه تتغير .رجال كانوا يموتون ببطء، بدأوا يستيقظون من داخلهم .العيون التي كانت مطفأة صارت تلمع في الظلمة، والأنفاس التي كانت تختنق تحت وطأة الحديد، صارت تتنفس في الله .لكن ذلك لم يرق للسجّانين.

في إحدى الليالي داهموا الزنازين بعنف، ضربوا كل من وجدوه يردد الذكر، وأخذوني إلى غرفة التحقيق مرة أخرى .جلس

الضابط أمامي وهو يبتسم ببرود: حتى هنا يا أسمر، تريد أن تؤسس لك جماعة؟ قلت بهدوء وأنا أنظر في عينيه: لا جماعة لي إلا من يجلس على سجادة قلبه. ضحك باستهزاء وصفق بيديه: حسناً، سنرى كم سيصمد قلبك.

عُلقَت لساعات طويلة في غرفة رطبة، أصابعي زُرعت فيها المسامير الصغيرة، وجسدي تقطّع بين السياط والعصي، لكن شيئاً في داخلي كان يغيب عن الألم، كأن الروح صارت أخف من الجسد، وأبعد من أن تطالها أيديهم.

تلك الليلة، حين عدت إلى الزنزانة، وضعت رأسي على الأرض الباردة،

وأغمضت عيني. رأيت الشيخ في المشاهدة مجدداً، ابتسم وقال: يا أسمر، لم يدخلوك السجن ليكسروا جسدك، بل ليفتحوا قلبك. هذا الحديد الذي يحيط بك هو أنفاسك الجديدة. فتحت عيني والدموع تنساب بهدوء، وعرفت أن كل شيء في هذا القيد كان تجهيزاً لحرية أكبر لا يدركها إلا من فقد كل شيء.

مرت السنوات بطيئة، لكنها لم تكن خاوية. كان السجن مدرسة في الفناء، وكنت أتعلم فيه كيف يكون القلب مرآة، وكيف يمكن

للروح أن تصبح مأوىً للآخرين حتى وهي في أضيق زنزانة .لم
أكن وحدي بعد الآن .كلما هدى الله قلبًا في السجن على يدي،
شعرت أن القيد يخفّ عن صدري قليلًا .كأن الحائط الذي حولنا
كان يذوب من الداخل، قطرةً قطرة، حتى ونحن خلف القضبان .
كتبت في دفثري الأزرق بعد سبع سنوات :لم يحررني أحد،
لكنني تحررت .

لم يفتحوا باب السجن، لكنني خرجت .

الفصل الثاني عشر : بوابة الفناء

لم أعد أشعر بالحديد من حولي .لم يعد للجدران معنى، ولا للباب المغلق قيمة .حتى صوت السلاسل وهي تُجرّ في الممرات صار يشبه موسيقى بعيدة لا تخصني.

في ليلةٍ من ليالي السجن الثقيلة، بينما كنت أجلس في ركن الزنزانة الضيقة، وضعت رأسي على الحائط البارد وبدأت أردد الذكر بصوتٍ خافت " هو... هو... هو...". كلما مرّ الاسم على لساني كان قلبي يزداد خفّةً، كأن شيئاً مني ينفصل شيئاً فشيئاً عن هذا الجسد المرهق.

أغمضت عينيّ، ورأيتني أطفو فوق جسدي .لم يكن مشهداً من أحلام اليقظة، بل إحساساً عميقاً أنني لم أعد هنا .وجدت نفسي في فضاءٍ أبيض بلا سقف ولا أرض، مجرد نور ممتد لا بداية له ولا نهاية .لا جدران، لا قيود، لا أسماء .كنتُ أنا، ثم فجأة لم أعد أنا.

شعرتُ أنني ذبْتُ كقطرة في بحرٍ لا متناهٍ، أنني لم أعد أملك قلبي، بل صرْتُ القلب نفسه، ثم صرْتُ النبض، ثم الصوت الذي يقول :هو.

هناك، لم يعد السؤال موجودًا، ولا الخوف، ولا حتى الرغبة في النجاة. كانت النجاة نفسها هي أن أتلاشى، أن أترك كل ما ظننته ملكي وأصير شيئًا بلا حدود.

رأيت الشيخ في المشاهدة، كان واقفًا على حافة النور، يبتسم بصفاءٍ لم أر مثله من قبل. قال بصوتٍ لم أسمعه بأذني، بل سمعه كل كياني:

يا أسمر .كنتَ تبحث عن الطريق، فصرتَ أنت الطريق .كنتَ تبحث عن الله في الخارج، فاكشفته في داخلك .ثم غاب صوته كأن الريح حملته، لكن صدى كلماته بقي يتردد في كل ذرة مني. حين فتحتُ عيني، كانت الزنزانة كما هي، الجدران الرمادية، الباب الحديدي المغلق، السلاسل الثقيلة .لكن شيئًا داخلي لم يعد كما كان .لم أعد أسيرًا لهذا الجسد، ولا رهينة لهذا المكان، لقد خرجت، حتى وإن بقي جسدي هنا.

في الأيام التالية، بدأ المساجين يلاحظون شيئًا غريبًا في وجهي . كانوا يقتربون مني في صمت، يجلسون إلى جوارِي دون كلام، وكأنهم يطلبون أنفاس الطمأنينة التي ملأتني .بعضهم بدأ يردد الذكر معي، وبعضهم كان يبكي بصمتٍ دون أن يفهم لماذا .

كنت أشعر أن السجن كله تحوّل إلى زاوية كبرى، كل جدار فيها صار شاهداً على أسماء الله، وكل نفسٍ أصبح سجدة خفية. وذات مساءً، جاءني أحد السجناء القدامى، كان رجلاً صلب الملامح، عيناه متعبتان من الغضب والخذلان. جلس أمامي وقال بصوتٍ منكسر: أسمر، علّمني كيف وجدت هذا السلام؟ وضعت كفي على يده المرهقة، ونظرت في عينيه طويلاً قبل أن أقول: لم أجده يا صديقي، بل هو الذي وجدني حين تلاشى كل شيء آخر.

كتبت في دفثري الأزرق على قصاصة صغيرة: لستُ أنا من هديّتهم، ولستُ أنا من فتحت الأبواب. النور ليس ملكي، لكنه مرّ بي، وأنا صرت ظله.

في تلك الليالي، كنتُ أشعر أن السجن لم يعد عقوبة، بل رحماً خفياً يولّدني من جديد. أن الألم لم يعد لعنة، بل صار معبراً إلى مقامٍ آخر، حيث لا أنا، ولا هم، بل هو وحده.

الفصل الثالث عشر : الخروج من الظل

فتحتُ عينيَّ مع خيط الضوء الأول المتسلل من شقوق الزنزانة . لكن هذه المرة كان الضوء مختلفاً، لم يكن كعادته متردّداً، بل كان حاداً كحدّ السكين، كأنه جاء ليقطع آخر خيط يربطني بالمكان . دخل الحارس وصرخ باسمي :أسمر، اجمع أشياءك !لم يكن لدي شيء أجمعه، كل ما أملك هو ثوبٌ قديم، مسبحة خشبية، وقصاصات صغيرة كتبتُ عليها شظايا من قلبي . اقتادوني إلى بوابة السجن دون كلام .لم يسألوني توقيعاً، ولم يشرحوا سبب الإفراج .كأنهم تخلصوا مني أكثر مما أطلقوا سراحي .وحين تجاوزت العتبة، أدركت أن الهواء في الخارج أثقل مما تخيلت، وأن الحرية ليست دائماً خفيفة.

وقفتُ طويلاً أمام بوابة السجن، أنظر إلى الطريق الترابي الممتدّ أمامي، أشعر كأنني غريب في زمني .كانت بغداد غير التي تركتها، شوارع مزدحمة أكثر، وجوه شاحبة تحمل آثار حربٍ طويلة، ونظرات مرهقة كأنها فقدت الحلم منذ زمن بعيد .لكن داخلي، كان يسير في وتيرة أخرى، أبطأ، أعمق، كأنني خرجت من رحمٍ مظلم إلى فضاءٍ غير محدود.

وصلت إلى البيت بعد غيابٍ طويل، فتحت أُمي الباب وهي لا تصدّق عينيها، صرخت باسمي ثم انهارت تبكي، احتضنتني بصمت، كأن دموعها تغسل عني بقايا الحديد والظلام. جلست إلى جوارها طويلاً، أتأمل تجاعيد وجهها التي صارت أعمق من قبل، وأدركت أنني لم أكن وحدي في السجن، بل كانت هي أيضاً سجيناً انتظاري.

في الأيام الأولى بعد خروجي، كنت أقضي الساعات في صومعتي، أعيد قراءة القصصات التي كتبتها في الزنزانة، وأستعيد أصوات المريدين الذين تعرفت إليهم خلف الجدران. لم أعد الشخص الذي دخل السجن قبل سنوات. ذلك الشاب المتمرد الباحث عن الله في النغمات، وفي المراقد، وفي الحب المعلق بسناء. ذلك الشاب ذاب في مقامٍ آخر.

كتبت في دفثري الأزرق: خرجتُ من السجن، لكن السجن خرج مني أولاً. لم أعد أبحث عن الطريق، أنا الطريق.

شيئاً فشيئاً، بدأ الناس يسمعون بخروجي. جاءني بعض المريدين القدامى، وجوههم مضيئة رغم التجاعيد، جلسوا عند قدمي وقالوا:

اشتقنا إلى أنفاسك يا أسمر .ابتسمت وقلت بهدوء :اشتاقوا إلى أنفاسكم أنتم، أنا لست إلا مرآة.

في إحدى الليالي عدت إلى زاوية الشيخ التي عرفتھا قديمًا . كانت القناديل ما تزال معلقة كما تركتها، لكن المريدين كانوا أقل، والصمت أكثر .دخلت فوجدت الشيخ جالسًا في ركنه المعتاد، عيناه مغمضتان كأنه في سفرٍ داخلي بعيد .اقتربت منه وجلست صامتًا .فتح عينيه بعد لحظة، ابتسم تلك الابتسامة التي عرفتھا يوم لقائي الأول، وقال بصوتٍ خافت لكنه نافذ :يا أسمر، أعددتُك للناس كما يُعدّ السيف من الفولاذ.

الآن ...امض، فدورك بدأ.

خرجت من الزاوية تلك الليلة وأنا أحمل شعورًا لم أعرفه من قبل . لم أعد مريدًا يجلس عند الأبواب، بل صرْتُ بابًا لغيري .لم أعد مجرد طالب نور، بل صرْتُ نافذةً صغيرة عليه.

ومنذ تلك الليلة، بدأ القادمون يطرقون باب صومعتي .كانوا يجيئون من كل صوب ، شباب ضائعون، رجال فقدوا إيمانهم، نساء أرهقهن الحزن، وملحدون يبحثون عن يقينٍ لا يجدونه في الكتب.

لم أكن أعطيهم أجوبة جاهزة، بل كنت أكتفي بالجلوس معهم في صمت، ثم أقول لهم :ادخلوا إلى أنفسكم، هناك ستجدون كل ما تبحثون عنه.

بدأ صدى الحلقات الصغيرة التي أقيمها في بيتي يتسع، وتتسلل إلى الزوايا الأخرى في بغداد، ثم إلى مدن بعيدة .صار هناك من يسافر لأيام فقط ليجلس في حضرة هذا الصمت المضيء .لكنني كنت أعلم أن هذا الطريق ليس طريق سلامٍ كامل، وأن المنافقين لن يتركوني أمضي فيه بهدوء .

كتبت في دفثري الأزرق :كل نورٍ يولد، يستدعي الظل".

الفصل الرابع عشر : المدى الآخر

كنتُ أجلس قرب نافذتي تلك الليلة، أراقب أضواء بغداد وهي تتناثر كنجومٍ صغيرة على صفحة الأرض، والقمر يعلو فوق المآذن والقباب كأنه شاهد صامت على الحكاية كلها. أغمضتُ عينيّ، وشعرت أن دجلة يهمس من بعيد، كأن النهر نفسه يعرف أن طريقي لم يعد هنا فقط، أن المسافة اتسعت، وأن الرحلة لم تعد محصورة بين جدران الزوايا وعتبات المراقد.

بدأ القادمون إلى صومعتي يتزايدون. لم يعودوا فقط من المريدين المعتادين أو الباحثين التقليديين عن الله، بل صاروا وجوهاً جديدة من كل اتجاه: شاب يساري يحمل كتب ماركس في حقيبته لكنه يبحث عن "روحٍ تهديه معنى. ملحد متعب من أسئلته، جاء ليقول: لا أؤمن بالله، لكنني أبحث عن يقين. امرأة مسيحية كانت تشعر أن روحها تضيع بين طقوس لم تعد تكفيها. وحتى شاب بوذي جاء من بعيد ليشاركنا جلسة صمت واحدة. كنتُ أستقبلهم جميعاً بلا حكمٍ ولا شروط. أجلس معهم في دائرة واحدة وأقول: "الله لا ينحصر في اسمٍ أو دينٍ أو لغة، الله أنفاسك حين تصدق، فإن صدقت، وصلتته".

وذات مساء، جاءني شاب نحيل، عيناه مشتتة بالحيرة. جلس أمامي وقال بصوتٍ متردد: يا أسمر قرأت الفلسفة كلها، ولم أجد ما يشفي عطشي، هل يمكن أن تدلّني على الطريق؟ ابتسمت ووضعت يدي على صدره، وقلت: الطريق لا يُقرأ في الكتب يا بني، الطريق يبدأ هنا. ثم أغمضت عينيه براحة كفي، وطلبتُ منه أن يصغي لصوته الداخلي، حتى غرق في صمتٍ عميق، وحين فتح عينيه بعدها، بدأت دموعه تسيل بلا وعي. قال وهو يبكي: لقد سمعتُ نفسي لأول مرة.

كانت الجلسات تمتد لساعات، أحياناً بالكلام، وأحياناً بالصمت الذي كان أعمق من أي حديث. لم أكن أعلمهم شيئاً، بل كنتُ فقط أذكّرهم بما يعرفونه في قلوبهم، لكنهم نسوه تحت ضجيج الحياة.

وبينما كانت الدائرة تكبر يوماً بعد يوم، بدأ صوتي يتجاوز بغداد. صرت أتلقي رسائل من أماكن بعيدة، من إسطنبول يسألني شاب تركي عن معنى "الفناء".

ومن القاهرة كتب لي كاتب معروف يقول :كيف نصنع سلامًا بين أدياننا؟ ومن أوروبا جاءتني رسائل طويلة من باحثين في الفلسفة المقارنة يريدون فهم لغة الصمت التي أكتب عنها .

كانت الرسائل تصل بلغات مختلفة، لكن القلوب التي كتبتها كانت واحدة .أدركتُ وقتها أن رسالتي لم تعد محصورة بزمنٍ أو مكان، بل صارت لغة روح يفهمها كل من صدق في بحثه، مهما كان دينه أو فكره أو خلفيته.

وذات ليلة، جلستُ قرب ضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني، وضعت يدي على الشباك النحاسي، وهمست :يا سيدي، حين أتيتُك أول مرة، كنتُ باحثًا عن نفسي.

أما الآن فقد صار الطريق أوسع مني .لكنني كنت أعلم أن كل نور يولد يستدعي ظله.

لم يرق هذا الاتساع لكثيرين، خصوصًا أولئك الذين أرادوا حصر التصوف في شكلٍ واحد، وفي دائرة مغلقة من الأتباع .اتهمني بعضهم أنني خرجت عن الطريق،

ووشى بي آخرون إلى من بيدهم السلطة، وأرسلوا من يشكون
 في نيتي عند مريديّ. لكنني كنت أبتسم وأقول في نفسي: الطريق
 أوسع من أن يضيقه خوفهم، والنور أعمق من أن تطفئه ظلالهم.
 كتبت في دفثري الأزرق تلك الليلة: لم أعد مريدًا للشيخ فقط، ولا
 مرشدًا لمجموعة صغيرة من القلوب. لقد صارت رسالتي مجرى
 مفتوحًا، يمرّ من بغداد إلى العالم كله، كأن روعي صارت دجلة
 أخرى، تسقي العطاشى أينما وجدوا.

الفصل الخامس عشر : حرب الظلال

لم يكن الليل هادئًا تلك المرة .كنتُ أجلس في صومعتي،
أنظر إلى دجلة المظلم من النافذة، وأسمع صدى أصوات المآذن
البعيدة، لكن قلبي كان مثقلًا بهمّ لم أعرف مثله من قبل.
بدأت تصلني الهمسات، بعضهم قال إنني خرجت عن الطريق .
آخرون قالوا إنني ابتدعت دينًا جديدًا .وهناك من زعم أنني
أستخدم التصوف لجذب الأتباع والسلطة.
ضحكت أول الأمر، ظننتها مجرد سحابة عابرة في سماء
رسالتي، ولكن الأيام أثبتت أن الظلال لا تمر سريعًا، بل تتكاثر
في صمتٍ حتى تبتلع بعض النور من حولك.
وذات ليلة، جاءني مريد قديم، وجهه متوتر، صوته خافت :يا
أسمر، بعضهم يحرض ضدك في السرّ .يجتمعون في الزوايا
ليتهموك بما لم تفعل، ويقولون إنك تفرّغ التصوف من قدسيته .
نظرتُ في عينيه طويلاً وقلت بهدوء :كلما ارتفع الجبل اشتدّت
الرياح عليه .ابتسم بحزن وهمس :لكنهم يحاصرونك .أجبتة :من
جعل قلبه مأوى لله لا تحاصره جدران.

مع الوقت، تحولت الهمسات إلى أصوات عالية، والأصوات إلى مؤامرات مدروسة.

بدأ بعض المريدين القدامى يتأثرون بالشائعات، ابتعد بعضهم في صمت، وبقي آخرون حائرين بيني وبينهم. لم أكن غاضبًا، لكن قلبي كان يشعر بثقل الامتحان.

كنت أعود في تلك الليالي إلى ضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني، أجلس قرب الشباك النحاسي البارد، وأهمس: يا سيدي هل النور حقًا قدره أن يُحارب؟ هل على السائر أن يواجه كل هذا الظل قبل أن يصل؟

وشعرت حينها كأن صدى داخلي يجيبني: لو كان الطريق سهلًا... ما سموه طريقًا.

وفي تلك الفترة، بدأت أرى في المنام مشاهد غريبة، وجوه مألوفة لكنها مغطاة بالأقنعة. أريدُ تحاول إطفاء شمعة صغيرة لكنها تزداد اشتعالًا كلما نُفخت. وأحيانًا كنت أرى الشيخ في النور يبتسم ويقول: دعهم، فالنهر لا ينحني لذباب السطح. ومع ذلك، لم يكن الهجوم مقتصرًا على الكلمات. بدأت تصلني رسائل تهديد مبطنة،

وهمسات بأن هناك من يسعى إلى منعي من إقامة الحلقات، بل وإغلاق الصومعة نفسها.

في تلك الليلة كتبت في الدفتر الأزرق: كل نور يولد، يدعو الظل إلى الامتحان. لكنني لست هنا لأقاتل أحدًا، أنا فقط أضيء، ومن شاء فليقترب، ومن شاء فليبتعد.

رغم كل ذلك، كانت الحلقات تكبر أكثر. المريدون الجدد كانوا يأتون من كل مكان،

بعضهم ترك ديانتهم، وبعضهم جاءني من مسافات بعيدة، بعضهم ملحد سابق، وآخرون من أصحاب الفكر المادي، لكن قلوبهم جميعًا كانت تذوب في اسم واحد. كنت أرى في وجوههم ما يجعلني أزداد يقينًا بأن رسالتي ليست ملكي، بل أمانة، وأن من يتكفل بحمل الأمانة لا يملك إلا أن يمضي، مهما تكاثرت الظلال حوله.

وذاذ ليلة، عدت إلى صومعتي بعد حلقة طويلة، أطفأت الأنوار وجلست على كرسي الهزاز قرب النافذة. رفعت رأسي إلى السماء وقلت همسًا: يا الله اجعلني شجرة صامته، كلما اشتدت الرياح زادت جذوري عمقًا. شعرت حينها أن صدري انفتح كنافذة، وأن نسمة ليل باردة مرّت بي، كأنها إشارة خفية بأن القادم أصعب وأوسع.

الفصل السادس عشر : الفجر الثاني

لم يكن الفجر الذي استيقظت عليه في ذلك اليوم يشبه أي فجرٍ عرفته من قبل . السماء صافية بشكلٍ غريب، والمدينة مغموسة في صمتٍ نادر كأن بغداد كلها تنتظر ميلادًا جديدًا . جلست قرب نافذتي، أتأمل أول خيط من الضوء وهو يشق العتمة، وشعرتُ أن داخلي أيضًا يُشرق على نحوٍ مختلف، كأنني لم أعد نفس الشخص الذي خاض معارك الأمس . كل ما مررت به ، السجن، الفقد، حروب الظلال ، صار الآن وقودًا للنور لا سببًا لإطفائه .

كتبت في الدفتر الأزرق :ثمة فجران في حياة الإنسان، أولهما يولد مع جسده، والثاني يولد حين يموت ظله . بدأ القادمون إلى صومعتي يزددون أكثر من أي وقت مضى .لم يعودوا يسألون عن الطريق، بل كانوا يشعرون به في حضرة الصمت الذي يسكنني .جلس أمامي شاب جاء من أربيل، عيناه غارقتان في القلق :يا أسمر، قرأت عن الله في كل الديانات، لكنني لم أجده !وضعت كفي على صدره وقلت بهدوء :ابحث عنه هنا، فإن لم تجده، فلن تجده في أي كتاب .

وذات مساء، جاءتني امرأة خمسينية من لبنان، قالت وهي تبكي :
 لم أعد أستطيع أن أصلي، قلبي ميت رغم كل السجود .ابتسمت
 وربتُ على يدها قائلاً :الصلاة ليست كلمات يا أختاه، الصلاة
 أن تذوبي فيه حتى لو لم تنطقي بحرف .أغمضت عينيها لثوانٍ،
 ثم انفجرت بالبكاء حتى هدأ قلبها، وغادرت وهي تردد :وجدت
 الصلاة في دموعي.

لكن ما كان يحدث في الصومعة لم يعد سرًا بيني وبين المريدين .
 بدأت الصحف تتحدث عني، بعضها كتب :الشيخ الصامت الذي
 يوقظ الأرواح .بينما وصفني آخرون بأني " خطر على النظام
 الروحي التقليدي، وأني أقود الناس إلى تصوفٍ جديد خارج
 الأطر المعروفة.

ضحكت حين قرأت ذلك، وكتبت في دفثري الأزرق :ليس في
 الأمر جديد، من وجد نبعًا في قلبه اتهمه العطاشى بأنه سرق
 الماء .

وصلتني رسائل من أماكن أبعد، من الهند وألمانيا والمغرب،
 وحتى من اليابان .كان بعضهم يطلب حضوري، وبعضهم يطلب
 كلمة، وآخرون كانوا يسافرون مسافات طويلة فقط ليجلسوا في

حضرة الصمت، حيث لا أعلمهم شيئًا، بل أتركهم يكتشفون أنفسهم.

وذات ليلة، كنت جالسًا وحدي في الصومعة بعد حلقة طويلة، أطفأت القناديل وبقيت في الظلمة، أستمع إلى دبيب أنفاسي وأصوات الليل البعيد. أغمضت عيني، فإذا بالمشهد يعود كما في الخلوة الأولى، نور ممتد بلا بداية ولا نهاية، وصوت الشيخ يأتي من عمق الغياب: يا أسمر... لقد بلغت المقام، لكن الطريق لم ينتهِ بعد، الفجر الثاني ليس نهاية الليل، إنه بدايته الحقيقية. فتحت عيني والدموع على وجهي، وأدركت أن رسالتي الآن لم تعد أن أبحث، بل أن أكون الطريق لمن يبحث.

ومع ذلك، كنت أعرف في أعماقي أن هذا النور الواسع سيستدعي ظلًا أعمق، وأن القادم ربما لن يكون أسهل من الماضي، لكنه سيكون أوسع أثرًا.

كتبت في دفثري الأزرق: من وُهب الفجر الثاني لا يعود ملكًا لنفسه، بل يصبح سفينةً تحمل غيره، حتى في وسط العواصف.

الفصل السابع عشر : العاصفة الصامتة

كان الليل ممتلئًا بالهمس، كأن بغداد نفسها تعلم أن شيئًا عظيمًا قادم .المآذن ساكنة، والهواء ثقيل كصفحة ماء قبل أن يُلقى فيها حجر .جلستُ على كرسيي الهزاز في صومعتي، أنظر إلى دجلة وهو يلمع بخيوط القمر، وأحسست أن النهر يهمس لي انتبه العاصفة قريبة.

بدأت تصلني الأخبار من كل صوب، تقارير في الصحف تتهمني بنشر “ بدعة صوفية، خطباء يهاجمونني في المساجد، يقولون إنني أفسدت عقول الشباب .رسائل تهديد تصل إلى باب الصومعة، تقول بوضوح :أغلق حلقاتك، أو سنغلقها نحن.

ابتسمت وأنا أقرأها، ثم كتبت في الدفتر الأزرق :كلما اقترب النور من القلوب، اشتعل الخوف في العيون المظلمة .لكن الأمر لم يقف عند الكلمات، بدأت السلطات تراقبني علنًا، رجال بملابس مدنية يقفون عند مداخل الأزقة، وعيون تلاحقني في كل تحرك، حتى بين المراقد والزوايا التي كنت أزورها .وذات ليلة، جاءني مريد شاب، وجهه شاحب وصوته مرتجف يا أسمر، لقد سمعتهم

يتحدثون يقولون إنك تشكل خطرًا على النظام، وأنهم سيتحركون قريبًا.

ابتسمتُ وربتُ على كتفه، وقلت بهدوء: يا بني الخطر ليس فيمن يذكر الناس بأن الله في قلوبهم، الخطر فيمن يريدون أن ينسوا ذلك.

لكن في العمق، كنت أعلم أن العاصفة أكبر مما تبدو، لم يكن الهجوم خوفًا من شخصي، بل من الحرية التي تعطيها كلماتي للآخرين.

في تلك الفترة، كنت أرى رؤى متكررة في المنام، سماء ملبدة بالغيوم، وريح تعصف بالرمال حتى تحجب الأفق، وأنا أقف في منتصف العاصفة، أغمض عيني وأمدّ يدي نحو الضوء، حتى أشعر أن النور يخترقني ويصير جزءًا مني.

حين كنت أستيقظ من الرؤيا، أبتسم في صمتٍ وأقول لنفسِي: العاصفة لن تكسرك، إنها جاءت لتكشفك. وذات مساء، حين امتلأت الصومعة بالمريدين، أخبرتهم بما يجري، وقال بعضهم بحماسة: دعنا نواجههم، نحن كثيرون! أحببتهم بابتسامة هادئة: لسنا هنا لنحارب أحدًا. من دخل الطريق ليقاقل، ضاع عنه

الطريق. أطارقوا رؤوسهم في صمت، وكان الصمت أبلغ من كل الكلمات.

بدأت الحلقات تتضاعف رغم التهديدات، بل صارت أكبر وأكثر حضورًا، وأصبح يجلس في حضرة الذكر شباب من أطيايف متعددة، وملحدون وجدوا لأول مرة يقينًا بلا قيد، ومريدون من أديان مختلفة، بل وحتى بعض المسؤولين الذين جاءوا خفية، يريدون شربة من ماء لا يُباع ولا يُشترى. لكن المنافقين لم يتوقفوا، بدؤوا يشيعون الأكاذيب بين المريدين أنفسهم:

"أسمر صار يبحث عن السلطة".

"أسمر يريد أن يصنع له دينًا جديدًا".

"أسمر خرج عن الطريق وعن شيخه".

كانوا يظنون أنهم بذلك يطفئون النور، لكنني كنت أرى في أعين من عرفوا الحقيقة، أن النور صار أقوى مما كان. وذات ليلة، جلست وحدي في صومعتي بعد حلقة ذكر طويلة، أطفأت القناديل وأغلقت الباب، ثم أغمضت عيني. سمعت صوت الشيخ في داخلي، واضحًا، صافيًا كما لو كان أمامي: يا أسمر، إنهم يظنون أن العاصفة ضدك، لكنها من أجلك. كلما زاد صخب

الريح، ازداد ثبات الشجرة. فتحت عينيّ، ونظرت إلى المسبحة
 بين أصابعي، وشعرت أن كل حبة فيها تشبه قلبًا وجد النور، وأن
 العاصفة مهما اشتدت لن تستطيع اقتلاع الجذور.
 كتبت في الدفتر الأزرق تلك الليلة: العاصفة ليست عدوًا، إنها
 اختبارٌ للنبات. من أراد الطريق، عليه أن يتعلّم كيف يبتسم وهو
 في قلب الريح.

الفصل الثامن عشر : مقام التجلي

لم يكن الليل ليلاً كما اعتدناه، ولم يكن الصمت صمتاً كما عرفته من قبل. شمة حضور آخر كان يملأ المكان، كأن كل ذرة من الهواء صارت تهمس باسمٍ واحد، اسم لم يعد يحتاج إلى حروف ولا أصوات، اسم هو.

كانت الصومعة ساكنة، المريدون نيام بعد حلقة طويلة، والقناديل مطفأة إلا من شعاعٍ خافت يتسلل من نافذة صغيرة. جلستُ وحدي في الركن المعتاد، مسبحتي بين أصابعي، والدفتر الأزرق مفتوح أمامي على صفحة بيضاء. بدأت أردد الاسم، همساً في البداية، ثم صارت أنفاسي نفسها ذكرًا، ثم غاب اللسان تمامًا، وغبتُ معه.

أغمضتُ عيني، فانفتحت أمامي سماء بلا حدود، سماء من نور خالص، لا شمس فيها ولا قمر، بل إشراق دائم لا يُحجب ولا يزول. رأيتني أقف على جسرٍ من ضوء، تحت قدمي بحر لا يشبه بحار الدنيا، فوق فضاء لا تعرفه عين، حولي ملايين الأنفاس تصعد في صمتٍ واحد. لم أعد أشعر بجسدي، ولا حتى

باسمي، ولا بما كنت أظنه "أنا"، كان كل شيء يتلاشى، إلا حقيقة واحدة، أنه لا شيء سواه.

سمعت صوت الشيخ في المشاهدة، لم يكن صوته من خارج، بل من عمقٍ غائرٍ في كياني: يا أسمر، لقد تجاوزت حدود السؤال والجواب، لم تعد تبحث عن الطريق، ولا حتى عن الله، لأنك أدركت أن الطريق هو الله، وأن الله هو الطريق.

انفجر النور من داخلي كنبحٍ خفي، شعرت أنني لستُ في المكان، بل المكان فيّ، ولستُ في الزمن، بل الزمن ينساب مني وإليّ.

استيقظت من التجلي وأنا أبكي بصمت، لم يكن بكاءً فقدٍ ولا بكاءً ندم، بل كان بكاءً الشهود، بكاءً من رأى ما لا يمكن للعين أن تراه، ولمس ما لا يلمس، وعاد وهو يحمل في قلبه سرًّا لا يوصف.

كتبت في الدفتر الأزرق تلك الليلة: لم أعد أنا، ولم أعد غيري. أنا موجة في بحرٍ لا ساحل له، قطرة تنوب في مطرٍ لا ينتهي، أنا لا أنا، أنا هو.

بعد تلك الليلة، لم أعد بحاجة إلى الكلام كثيرًا. صار حضوري وحده خطابًا، وصمتي مرآة يرى فيها الناس أنفسهم. جلس أمامي رجل ملحد ذات مساء، نظر في عينيّ طويلًا ثم بكى، وقال: لا أعرف لماذا أبكي! ابتسمتُ وأجبته: لأنّ روحك تذكرت نفسها.

بدأت الرسائل تصل من أبعد مما كنت أتخيل: من الولايات المتحدة واليابان وأمريكا اللاتينية، باحثون وعلماء وأصحاب ديانات متعددة، كلهم يسألون عن معنى الصمت، عن سرّ هذه الطمأنينة التي تنتقل حتى من بين الحروف. كانت محاضرات تُترجم إلى لغات لا أعرفها، وحلقات تُبثّ عبر فضاءات لم أصلها جسديًا، لكن قلبي صار هناك.

وذاث ليلة، بينما كنتُ في خلوة عميقة، سمعت نداءً داخليًا أقوى من كل الأصوات:

يا أسمر، لقد بلغت مقام التجلي، لكن الطريق لم ينتهِ بعد، الآن تبدأ الرسالة. فتحت عينيّ، وشعرت أن الصومعة، والمدينة، والأرض كلها، مجرد باب صغير إلى فضاءٍ أكبر لم يُفتح بعد.

الفصل التاسع عشر : الرسالة

استيقظتُ في تلك الليلة على همس داخلي، كأن قلبي يناديني باسمي لأول مرة :يا أسمر، حان وقت الخروج من صمتك .كنت جالساً في صومعتي الصغيرة، والدفتر الأزرق مفتوح أمامي على صفحة بيضاء، شعرت أن القلم لا يكتب بالحبر، بل يكتب بنورٍ يسري من قلبي إلى السطور .

كتبت بلا وعي :ليست الرسالة أن أعلمكم شيئاً، بل أن أذكركم بما تعرفونه أصلاً، أن أدلكم على الباب الذي فيكم، لا على بابي أنا .

بدأت كلماتي تتسرب خارج الصومعة، في رسائل المريدين، وفي محاضرات مسجلة تُترجم إلى لغات مختلفة، حتى صارت تُقرأ في أماكن لم أعرفها من قبل في الأندلس القديمة حيث التاريخ يهمس بالأديان المتجاورة، في الهند بين اليوغا والمناسك البوذية، وفي أمريكا اللاتينية حيث تبحث الأرواح عن معنى جديد للحرية .لم أكن أرسل شيئاً، لكن الرسالة كانت تسافر وحدها، كما يسافر النور في العتمة دون أن يسألك إذنًا .

وذات مساء، جاءني مريد شاب من ألمانيا، كان في منتصف العشرينات، عيناه بلون المحيط وصوته مرتجف: يا أسمر، جنّت من بعيد لأسمع منك كلمة. أشرت له أن يجلس في الدائرة، ثم قلت بهدوء: لن أعطيك كلمة، سأعطيك صمتًا، ومن صمتك ستولد الكلمة التي تخصك أنت وحدك. جلس الشاب معنا لساعات طويلة، لم نتحدث فيها إلا القليل، وعندما همّ بالمغادرة، عانقني وبكى وهو يقول: لم أتعلم شيئًا؟، لكنني وجدت كل شيء. لم يكن الأمر يتعلق بي، كنت أعلم أنني مجرد مجرى ماء يمر ولا يدّعي امتلاك النهر.

كنت أقول دائمًا في حلقاتي: أنا لست مرشدكم، بل مرآة صغيرة لمرشدكم في قلوبكم. كل ما أفعله أن أنفض الغبار عن نافذتكم الداخلية، حتى تبصروا أن النور كان فيكم منذ البداية.

ومع ازدياد التأثير، ازدادت حرب الظلال حولي، بدأت أصوات تتعالى: أسمر يذيب الفوارق بين الأديان، هذا خطر. !أسمر يحرر القلوب من الخوف، كيف نسيطر إذن؟ أسمر يدعو الناس إلى ثورة داخلية، هذا تهديد !كانوا يخشون أن يعرف الناس حقيقتهم، لا لأنني قلت شيئًا جديدًا، بل لأنني ذكّرتهم بما نسوه.

و ذات ليلة، جاءني اتصال من أحد مريديّ القدامى :يا أسمر، رسالتك الآن صارت أكبر من بغداد .لكن اعلم أن الأعين كلها عليك .ابتسمتُ بهدوء، ونظرت إلى المسبحة بين أصابعي، وقلت في نفسي :ما دامت الأعين على الله، فلا بأس أن تكون عليّ أنا. في تلك الفترة، كانت الحلقات التي تُقام في بغداد تُنقل عبر الإنترنت إلى مدن بعيدة:

في الرباط كانوا يجلسون في مقهى صغير ليستمعوا إلى صوت الذكر.في كوالالمبور كانت شابة مسلمة تجلس قرب بوذي وهندوسي، يستمعون معًا إلى حديثٍ عن حبٍ لا تفرقه الأسماء . وفي نيويورك، كان شاب يكتب لي :كلماتك أخرجتني من ظلمة الإلحاد، لكنها لم تدخلني في دينٍ آخر، أدخلتني إلى نفسي. كل ذلك كان عظيمًا، لكنني كنت أشعر أن هذا الاتساع ثمنه ثقل .كنت أستيقظ أحيانًا قبل الفجر، أمدّ يدي إلى السماء وأهمس :يا الله، أعطني قلبًا يتسع لكل هذا، ولا تجعلني أظن لحظة أن الأمر لي.

كتبت في الدفتر الأزرق :ليست الرسالة أن أكون معلمًا، بل أن أكون خادمًا للنور.

وحين ينتهي دوري، سيستمر الطريق بدوني.

الفصل العشرون : الامتحان الأخير

كان الليل ملبدًا بالغيوم، والرياح تعصف بالأشجار كأنها تستعد لمعركة خفية. جلستُ على كرسي الهزاز قرب النافذة، أتأمل دجلة وهو يعكس أضواء القمر المكسور، وأشعر في داخلي بتيار مضطرب لا أعرف له مصدرًا ولا غاية. كنت أعلم أن العاصفة القادمة ليست كسابقاتها. بدأت تصلني الأخبار تباعًا: السلطات عقدت اجتماعًا عاجلاً بشأن حلقاتي وحركتي. المنافقون بنوا بين الناس أنني "أستغل الدين لتحقيق نفوذ سياسي. وبعض المرشحين القدامى انساقوا وراء الشائعات، وابتعدوا في صمتٍ موجه. لكن الأصعب كان خيانة من ظننتهم الأقرب، أناس جلستُ معهم في حلقات الذكر، شاركوني الدموع والدعاء، صاروا الآن شهودًا عليّ في محاضر التحقيق.

وذات ليلة، طرقت الباب يدً قوية، وحين فتحته، وجدت ثلاثة رجال بملابس مدنية. قال أحدهم ببرود: أَسْمَر، نحتاجك معنا! لم يكن السؤال مسموحًا، ولا الرفض واردًا.

را فقوني في صمتٍ ثقيل إلى سيارة سوداء باردة، تحت سماء لا نجوم فيها. وصلنا إلى مبنى لا يحمل لافتة، لكنني عرفت المكان

قبل أن أدخله، كانت رائحة الخوف تسبقه. قادوني إلى غرفة صغيرة، جلس فيها رجل ضخم الملامح، عيناه كجمرتين لا حياة فيهما. قال دون مقدمات: ما الذي تريده يا أسمر؟ أتباعك كثر، حلقاتك تنتشر، قل لنا الحقيقة، هل وراءك جهة خارجية؟ ابتسمت بهدوء رغم اضطراب صدري وقلت: ليس ورائي إلا الله. ضرب الطاولة بعنف حتى ارتجفت جدران الغرفة، ثم قال بلهجة تهديد: إن لم تتوقف، لن نترك لك ظلًا تمشي فيه.

نظرت في عينيه مباشرة وأجبته: الظل لي، أما النور، فليس لي أن أطفئه.

بدأت سلسلة طويلة من الاستدعاءات، كلها تحمل نعمة واحدة: اصمت، أو سنجعلك تصمت. لكنني كنت أعلم في داخلي أن الصمت الحقيقي ليس أن أغلق فمي، بل أن أطفئ النور في قلوب المریدين، وهذا ما لم يكن ليحدث أبدًا.

اشتد الحصار من كل جانب، بعض الزوايا أغلقت أبوابها خوفًا. المریدون تفرّقوا بين راغب في البقاء وآخر اختبأ بعيدًا. بل وصل الأمر إلى التضييق على من يزورني أو يجلس معي. حتى

صومعتي، ذلك المكان الذي شهد ميلادي الروحي، صارت مراقبة ليل نهار.

في تلك الليالي، كنت أعود إلى نافذتي الصغيرة، أمدّ بصري إلى دجلة وأهمس: يا الله إن كان هذا امتحانك الأخير، فخذ مني كل شيء إلا قلبي.

و ذات فجرٍ بارد، رأيت الشيخ في المشاهدة بوضوحٍ لم أعهده من قبل، ابتسم وقال بصوتٍ كالماء: يا أسمر، لقد مررت بالحب والفقد، بالسجن والحرية، بالنور والظلال. الآن جاء امتحان الأمانة. إن استطعت أن تعبره، لن يعود في العالم شيءٌ يخيفك. استيقظت من الرؤيا وقلبي يخفق بشدة، وشعرت أنني أقف على حافة الفناء الثاني، ذلك الفناء الذي لا يذيب الجسد فقط، بل يذيب حتى أثر الخطوة في الرمل، حتى لا يبقى إلا الطريق وحده. كتبت في الدفتر الأزرق: ليس الامتحان أن أواجه سجانًا أو منافقًا، الامتحان أن يبقى القلب مرآة صافية وسط الغبار.

بدأت تلك الأيام باردة وثقيلة، لكن شيئًا في داخلي كان يزداد نورًا
وصفاءً، كأن العواصف كلها لم تعد تأتي لتسقطني، بل لتغسلني
حتى أنقي كل ذرة من وجودي.

لم أكن أعلم كيف سينتهي هذا الامتحان، لكنني كنت أعلم شيئًا
واحدًا أن الرسالة الآن لم تعد لي، بل صرت أنا لها.

الفصل الحادي والعشرون : الفناء الثاني

لم يكن الليل تلك المرة مظلمًا، كان يشبه محيطًا بلا حدود، كأن النجوم ذابت في فضاءٍ واحد، حتى صار كل ما حولي نورًا ساكنًا، ونورًا يسري في داخلي في الوقت نفسه.

جلست في صومعتي، المسبحة بين أصابعي، والدفتر الأزرق مفتوح على صفحة فارغة، كأنها تنتظر أن تتنفس بدلاً مني . بدأت أردد الاسم همسًا، ثم صمتًا، ثم حضورًا . لم يعد لساني يتحرك، ولا حتى عقلي يشارك، صار الذكر نفسه كياني كله . وفجأة، شعرت أن شيئًا ما انكسر في داخلي، كأن جدارًا شفافًا ظلّ بيني وبين الحقيقة قد تلاشى . رأيتني أدوب كقطرة في محيط لا ساحل له، لا بداية فيه ولا نهاية، حيث كل شيء يغيب إلا وجه واحد لا يشبه شيئًا ولا يُشَبَّه بشيء .

لا "أنا" هناك، ولا "هم"، ولا "الآخر". ثمة واحد، واحد فقط. سمعت في أعماقي صوت الشيخ، واضحًا كأنما يتكلم بالروح لا باللسان :يا أسمر، ها قد متَّ قبل أن تموت .ها قد عبرت من الأنا إلى الأبد .الآن، لن تبحث عن الله بعد اليوم، لأنك صرت فيه.

لم أعرف كم بقيت في تلك الحالة، لحظة أم دهرًا، لكن حين فتحت عينيّ، لم يكن شيء كما كان. كل شيء في الصومعة كما هو: الجدران، القناديل، المسبحة بين أصابعي، لكن الذي يرى لم يعد هو أنا.

رأيت العالم كله واحدًا، الضوء والظل، الماء واليابسة، السماء والأرض، كلها خيوط في نسيجٍ واحد، كلها أنفاس من نفس النَّفس الأول.

في اليوم التالي، اجتمع المريّدون حولي كعادتهم، لكنني لم أتكلّم. جلسنا في صمت طويل، لا دعاء ولا تلاوة، حتى شعرت أن أنفاسنا جميعًا صارت نَفَسًا واحدًا يعلو وينخفض في إيقاعٍ كوني عجيب.

اقترب مني شاب جديد، وجهه مضطرب وعيناه تبحثان عن يقين، قال وهو يهمس: يا أسمر دلّني على الله. نظرت إليه طويلاً قبل أن أبتسم وأجيب: هو لم يغيب عنك يومًا، أنت من غابت عنه. انفجرت دموعه بين يديّ، كأن قلبه أدرك الحقيقة دون حاجة إلى مزيد من الشرح.

لم أعد بحاجة إلى الحروف كما كنت، صارت النظرات أبلغ،
والصمت أوسع، حتى صار بعض المریدین يكون حين يجلسون
بقربي دون أن أنطق كلمة واحدة.

كنت أرى في وجوههم ما كنت أراه في ذاتي، كأن النور انعكس
فيهم كما انعكس فيّ، حتى غدونا جميعاً مرآيا لبعضنا، تعكس
سرّاً واحدًا ، هو فينا، ونحن فيه.

وذاث ليلة، كنت جالساً قرب دجلة، أنظر إلى صفحة الماء
الساكنة، وهمست لنفسي: لم أعد أبحث عن الطريق، لأنني
صرت الطريق. لم أعد أبحث عن النور، لأنني صرت مرآته.

كتبت في الدفتر الأزرق آخر ما كتبت فيه: هذا أنا، ولست أنا .
أنا ظلٌّ مرّ عليه الضوء فصار شفافاً. أنا لا شيء، وفي
الاشيء، وجدت كل شيء.

الفصل الثاني والعشرون : العبور الأخير

كانت بغداد غارقة في ليلها، نجوم قليلة مترددة في سماء مثقلة، ودجلة ينساب بصمت كأنه يحمل سرًّا لا يريد أن يبوح به. في تلك الليلة، جلستُ قرب النافذة الخشبية القديمة، المسبحة بين أصابعي، والدفتر الأزرق مفتوح على آخر صفحة بيضاء. لم أكتب، لم أستطع. كان في داخلي شعور عميق أن الكلمات وصلت إلى حيث لا يمكنها أن تذهب أبعد. أغمضت عينيّ، فتدفَّق في صدري إحساس غريب، خفّة لم أعرفها من قبل، كأن قلبي صار ريشة في مهبّ نورٍ لا يُرى. سمعت دجلة يهمس من بعيد، سمعت أصوات المآذن في الفجر، سمعت دبيب أنفاسي الأخيرة، أو ربما أنفاسي الأولى. تذكّرت كل شيء دفعة واحدة، حلقات الذكر في الزوايا القديمة، السنوات الثقيلة في السجن، حرب الظلال، التجليات الأولى، والوجوه التي مرت بي وبقيت في القلب، سناء، الشيخ، المريدون، حتى وجهي الذي لم أعد أعرفه تمامًا.

نهضت من مكاني ببطء، خرجت إلى الأزقة المبتلة بندى الفجر، كانت بغداد ما تزال نائمة، والريح الباردة تلامس وجهي كيدٍ خفية تدعوني إلى مكانٍ لا أعرفه.

وصلت إلى دجلة، جلست على حافته، راقبت صفحة الماء وهي تعكس ضوء القمر الشاحب، ثم همست بصوتٍ خافت لم يسمعه أحد: اللهم اجعلني فيك وأبقني فيك.

لا أحد يعلم ماذا حدث بعدها. بعضهم قال إن أسمر غادر بغداد فجأة، اختفى دون أثر، لا عنوان، لا وصية، ولا حتى كلمة وداع. آخرون أقسموا أنهم رأوه في الهند، جالسًا في خلوة صامته بين الرهبان، عيناه مغمضتان كمن يرى ما لا يرى. وهناك من قال إنه ما زال يعيش في صومعته، لكنه صار مختلفًا، كأن جسده حاضر، لكن روحه في مكان آخر.

أما المريدون، فلم يتفقوا يومًا على شيء كما اتفقوا على هذا، أن النور الذي تركه فيهم لا يزال يتوسع، وكأن حضوره أصبح أكبر من حضوره، كأنه لم يرحل أبدًا.

في إحدى الليالي، وجد أحد المريدين الدفتر الأزرق على سجادة صلاته، مفتوحاً على آخر صفحة بيضاء، وعليها جملة وحيدة مكتوبة بخطٍ دقيق:

" الطريق يبدأ ...حيث تظن أنه انتهى".

رفع المريد رأسه نحو السماء، ابتسم، وأغلق الدفتر ببطء، وهو يدرك أن الحكاية لم تنتهِ بعد، بل ربما بدأت الآن.

الخاتمة

لم تكن حكاية أسمر مجرد رحلة رجلٍ يبحث عن الله، بل كانت مرآة لرحلة الإنسان كله، ذلك الكائن الذي يقطع العمر بين ولادةٍ لا يختارها وموتٍ لا يعرف ميقاته، يحمل قلبًا يضجّ بالأسئلة، وعقلًا يزدهم بالظلال،

وروحًا تشتاق إلى نورٍ لا يُرى.

يظن القارئ أحيانًا أن الحكاية انتهت هنا، لكنها لا تنتهي أبدًا، لأن "أسمر" لم يكن اسمًا لرجل واحد، بل كان رمزًا لكل روح تتعثر، لكل مريدٍ يشتاق،

لكل عاشقٍ ضلّ الطريق ثم وجد في الضياع نفسه الطريق. ربما يقرأ القارئ الرواية بحثًا عن أجوبة، لكنه سيخرج منها محملاً بأسئلة أكثر، هل الطريق في الخارج أم في الداخل؟ هل النور يُكتسب أم يُكشف؟

هل نحن السائرون إلى الله، أم أن الله هو الذي يسير إلينا؟ لقد ترك أسمر كل شيء خلفه، المكان والزمان والأسماء، لكنه ترك أيضًا أثرًا لا يُمحى، أثرًا يشبه همسًا في قلب كل قارئ يقول: ابحث... لا تتوقف فكل بابٍ يغلق خلفك يقودك إلى بابٍ آخر.

الفهرس

٦	كلمة المؤلف.....
٧	قراءات نقدية حول الرواية.....
١١	مقدمة الرواية.....
١٣	الفصل الأول : العين ترصد والقلب يدّون.....
١٧	الفصل الثاني : ضلال الطفولة.....
٢١	الفصل الثالث : الجيتار والفنادق.....
٢٥	الفصل الرابع : سناء، المدى القريب والبعيد.....
٢٩	الفصل الخامس : الزاوية الأولى.....
٣٣	الفصل السادس : المراقد البغدادية.....
٣٧	الفصل السابع : الصدع الأول.....
٤٠	الفصل الثامن : الكرسي الهزاز.....
٤٣	الفصل التاسع : طريق الكشف.....
٤٦	الفصل العاشر : القبضة.....
٥٠	الفصل الحادي عشر : أنفاس الحديد.....
٥٤	الفصل الثاني عشر : بوابة الفناء.....
٥٧	الفصل الثالث عشر : الخروج من الظل.....

٦١	الفصل الرابع عشر : المدى الآخر
٦٥	الفصل الخامس عشر : حرب الظلال
٦٨	الفصل السادس عشر : الفجر الثاني
٧١	الفصل السابع عشر : العاصفة الصامتة
٧٥	الفصل الثامن عشر : مقام التجلي
٧٨	الفصل التاسع عشر : الرسالة
٨١	الفصل العشرون : الامتحان الأخير
٨٥	الفصل الحادي والعشرون : الفناء الثاني
٨٨	الفصل الثاني والعشرون : العبور الأخير
٩٣	الفهرس